المساجد والقصور

في

الأندلس

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

م
٦١٣٢
٢٤٤ : ٢٤٢
١٩٨٦

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

مقدمة

تختلف الحضارة الاسلامية فى المغرب والأندلس اختلافاً بيناً عن غيرها من حضارات البلاد التى أخضعها الاسلام لسلطانه ، وكان المغرب والأندلس يؤلفان جزءاً منفصلا عن بقية العالم الاسلامى لبعدهما الشاسع وعزلتهما عنه نتيجة للانفصال السياسى الذى حدث على أثر سقوط الدولة الأموية بالمشرق وقيام الدولة العباسية ، وقد استطاع عبد الرحمن الداخل ، أحد أمراء بنى أمية بفضل ما أوتى من المعية ان يؤسس ملكاً بعد غنائه ، اذ اقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، فضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بحسن سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته .

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة . ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقه فى الأبنية الدينية والمدنية/ فقد عمد عبد الرحمن بن معاوية منذ أن استقام له الأمر الى تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فشيد الدور وأقام القصور . وكان بحكم بعده عن دمشق مسقط رأسه يحن الى أرضه حنيناً متواصلا ، فأقام منية الرصافة شمالى قرطبة لنزهه وسكناه واتخذ بها قصراً حسناً ودحا جناناً واسعة ونقل اليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وسماه باسم رصافة جده هشام . وتأثر فى بنائه للمسجد الجامع بقرطبة بالجامع الأموى بدمشق .

ومنذ ذلك الحين نبت الفن الاسلامى بالأندلس وما لبث أن ترعرع فى العصور التالية حتى وصل الى ذروة نضارته فى عصر بنى نصر ، ثم هاجر هذا الفن الى المغرب بعد أن طرد من بلاده التى ولد

فيها على أثر الاسترداد المسيحى وقدر له أن يقضى فيه البقية الباقية من حياته •

ومن الغريب حقاً أن نلمس باسبانيا فى الوقت الحاضر آثار التقاليد الاسلامية فى جميع مظاهر الحياة العمرانية ، فما زالت تحتفظ منذ انتهاء دولة الاسلام بالأندلس بتراث هائل من هذه التقاليد ، وما زالت مدنها تحمل ذلك الطابع الاسلامى الذى عمد ملوك اسبانيا المسيحية المتحدة دون جدوى الى محوه : كل ذلك بفضل الصبغة الاسلامية التى تأصلت طوال ثمانية قرون فى كيان اسبانيا الاجتماعى والفكرى والاقتصادى وبفضل الروائع المعمارية التى خلفها مسلمو الأندلس فى مدنهم وقراهم ومجاشرهم بعد أن حرموا من الحياة فى وطنهم ومسقط رأسهم •

هذه العمارة الأندلسية تستحق منا الدراسة والاهتمام باعتبارها الآثار المادية القائمة التى تشهد بما أحرزته الحضارة الاسلامية فى اسبانيا فى العصور الوسطى من تفوق على سائر الحضارات الأوربية •

الأسكندرية فبراير ١٩٨٦

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الأول

المساجد

أولا : المسجد الجامع بقرطبة .

ثانيا : المساجد الأندلسية فى عصر الدولة الاموية وعصر ملوك الطوائف

ثالثا : المسجد الجامع بقصبة اشبيلية .

أولا — المسجد الجامع بقرطبة

لم يخلد أثر من الآثار الاسلامية فى كتب التاريخ كما خلد المسجد الجامع بقرطبة ، فقد كتب عنه جميع مؤرخى العرب فى المغرب والأندلس ووصفوه وصفاً دقيقاً فاق كل وصف ، ولولا أن هذا الأثر الجليل مايزال قائما حتى اليوم تشهد عناصره بصدق أقوالهم لكنا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضرباً من الخرافة أو نوعاً من المبالغة الخيالية . ولقد عظم أهل الأندلس هذا المسجد ، ويرجع ذلك التعظيم الى أن حنش بن عبد الله الصنعانى وأبا عبد الرحمن الحبلى التابعين توليا تأسيسه بأيديهما ، وقوما محرابه . واحتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بالمحراب القديم فى زيادته لبيت الصلاة (١) ، كما احتفظ المسجد الجامع فى زياداته المتتابعة باتجاه القبلة الذى حدده حنش الصنعانى . ومن مظاهر اجلال هذا الجامع ما نعتـه به مؤرخو العرب ، فقد سماه المراكشى بالجامع الأعظم (٢) . وكذلك أسماه ابن بشكوال (١) وابن الخطيب (٢) ، ووصفه الادريسى بقوله : « وفيها الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولا وعرضاً (٣) » . وقال عبد المنعم الحميرى : « وفيها المسجد الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا كبر ساحة ، واحكام صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة

---

(١) انظر الرسالة الشريفية فى الاقطار الاندلسية للشقندى ص ١١٦—١١٧

(٢) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(١) نفح الطيب للمقرى ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ج ٢ ص ٩٩

(٢) ابن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ص ٤٣ ، ٤٨ .

(٣) الادريسى : وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق تحقيق دوسيه لابار ، الجزائر ١٩٤٩ .

وتتعميما اثر تتميم حتى بلغ الغاية فى الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف (١) » .

وقد بلغ من اجلال أهل الأندلس وتعظيمهم لمسجدهم الجامع أن جعلوه مركزاً يحجون اليه ، وفى ذلك يقول ابن المثنى شاعر عبد الرحمن الأوسط من قصيدة :

بنيت لله خير بيت   يخرس عن وصفه الأنام
حج اليه بكل أوب   كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه ، اذا ما   حف به ، الركن والمقام (٢)

ويعتبر المسجد الجامع بقرطبة أروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط بفضل ما تضمنه من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية ، وقد أنقذته هذه الجلائل من موجات التخريب التى تبعث الاسترداد القومى الاسبانى ، وشملت العدد الأعظم من آثار الاسلام فى الأندلس . ويعد هذا المسجد العظيم الاثر الوحيد فى اسبانيا لعصر من أرقى العصور التى مرت عليها فى الوقت الذى كانت تنغمس فيه الدول الأوربية الأخرى فى ظلمات الجهل والانحطاط ، كما أن بناءه يحتضن فى عناصره ذلك المجد الذى بلغه الفن الاسبانى الأموى . ويمكننا أن نجزم القول بأن جميع التطورات التى أصابتها العمارة الاسلامية المغربية تعتمد فى أصلها على هذا المسجد ، لأنه يضم العناصر التى أخذت فى الظهور بعدئذ فى عهد ملوك الطوائف وفى عصر دولتى المرابطين والموحدين والتى بلغت ذروة تطورها فى

---

(١) الحميرى : كتاب الروض المعطار ، نشرة ليفى بروفنسال ، لندن ١٩٣٨ ص ١٦٨ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

عصر دولة بنى نصر . وبغض النظر عن أهميته العظمى للفن الاسبانى المغربى وما حمله من ثراء بفضل الصور الجديدة التى اتخذت منبعاً ترتوى منه فنون الاسلام فى المغرب فان المسجد الجامع بقرطبة اخذ يشع تأثيراته فى مجالات بعيدة فادركت تأثيراته جنوبى فرنسا ، اذ نراه فى بعض آثارها (١) ، وأصاب هذا التأثير بعض عمائر المغرب (٢) ومصر (٣) .

لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر بن الخطاب من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتهم تحت السور وهى الكنيسة المعروفة بسنت بنجنت St.vincent وابتنوا فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً لهم أسس قبلته حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى ، وبقى الشطر الآخر بأيدى النصارى ، وهدمت سائر الكنائس بحضرة قرطبة . وقنع المسلمون بما فى أيديهم الى أن كثروا وتزايدت عمارة قرطبة ونزل بها أمراء العرب من جند

---

(١) انظر مقالنا « اثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا » بالمجلة ، العدد ١٤ فبراير ١٩٥٨ ص ٧٣ — ٨٨ .

(٢) يبدو هذا التأثير القرطبى فى الطابع الذى اتخذه نظام بلاطات المساجد المغربية المتجهة عموديا على جدار القبلة ، وفى عقود محاريبها ، وفى تعدد القباب على اسكوب المحراب ، وفى نظام المآذن ، وفى الصور التى اتخذتها العقود والقباب وفى الزخرفة الهندسية والنباتية . وقد بدأت التأثيرات القرطبية تغزو المغرب منذ عهد الادارسة بفاس . حيث انشأوا جامع القرويين ، فان مئذنته الحجرية التى مازالت قائمة فى وقتنا هذا والتى اضيفت اليه عام ٩٥٥ م تتوافر فيها صفات المئذنة القرطبية التى اقامها الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل بجامع قرطبة انظر Terrasse فى كتابه L'art Hispano Mauresque ص ٢١٥ — ٢١٦

(٣) انظر مقالنا : بعض التأثيرات الاندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ ص ٨٨ — ١٠٠ .

الشام فى العهد الذى كانت تخضع فيه لخلافة بنى أمية بالمشرق ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفـة ، ليقيموا ظلة يستكنون بها حتى كان الناس يجدون فى الوصول الى داخل المسجد الأعظم مشقة « لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض (١)» ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الأمير عبد الرحمن ابن معاوية المروانى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق ، فاستولى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدينت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وساومهم بيع مابقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا بيع ما بأيديهم ، وسئلوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بنـاء كنيستهم التى هدمت بخـارج المدينة ، وتعرف بشنت أجلـح خارج الأسوار (١) San Ascilo على أن يتخلوا للمسلمين عن هـذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الامر على ذلك عام ١٦٨ — ١٦٩ هـ (٧٨٤ — ٧٨٥ م)، فابتنى عبد الرحمن الداخل المسجد الجامع ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته، واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) .

وساهم أمراء بنى أمية فيما بين ٨٥٢ — ٨٨٦ م فى الاضافة اليه أو تجديده وتجميله ثم زيد فيه بعد ذلك زيادات هامـة . ويمكننا أن نحدد المراحل التى مر بها بناء المسجد الجامع بست مراحل : الأولى :

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ ، ابن عذارى : البيـان المغرب فى أخبار ملوك الاندلس والمغرب ، ج ٢ نشرة كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٥١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١) فتح الاندلس Historia de la conquista deEspana تحقيق خواكين جنثالث Joaquin Gonzalez الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ — ١٠ — وكذلك أنظر مقالنا Al-Sayyid Salem : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, Al-Andalus, fasc. II, 1954.

الشام فى العهد الذى كانت تخضع فيه لخلافة بنى أمية بالمشرق ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة ، ليقيموا ظلة يستكنون بها حتى كان الناس يجدون فى الوصول الى داخل المسجد الأعظم مشقة « لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض (¹)» ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الأمير عبد الرحمن ابن معاوية المروانى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق ، فاستوى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدينت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وسامهم بيع مابقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا بيع ما بأيديهم ، وسئلوا بعد الجهد بهم أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت بخارج المدينة ، وتعرف بشنت أجلح خارج الأسوار (¹) San Asciio على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الامر على ذلك عام ١٦٨ — ١٦٩ هـ (٧٨٤ — ٧٨٥ م)، فابتنى عبد الرحمن الداخل المسجد الجامع ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته، واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) •

وساهم أمراء بنى أمية فيما بين ٨٥٢ — ٨٨٦ م فى الاضافة اليه أو تجديده وتجميله ثم زيد فيه بعد ذلك زيادات هامة • ويمكننا أن نحدد المراحل التى مر بها بناء المسجد الجامع بست مراحل : الأولى :

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، ج ٢ نشرة كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٥١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١) فتح الاندلس Historia de la conquista deEspana تحقيق خواكين جنثالث Joaquin Gonzalez الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ — ١٠ — وكذلك أنظر مقالنا Al-Sayyid Salem : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, Al-Andalus, fasc. II, 1954.

المسجد زمن عبد الرحمن الداخل والثانية فى عهد الأمير هشام والثالثة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط والرابعة فى عهد عبد الرحمن الناصر والخامسة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر والسادسة فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر . وفى هذا العهد الأخير اخذ المسجد الجامع بقرطبة صورته النهائية .

المرحلة الأولى :

كان نصف هذا المسجد الأول مسقفاً ونصفه الآخر صحناً للهواء وكان النصف المسقف أو بيت الصلاة يتميز باشتماله على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة تمتد على اثنى عشر قوساً تقوم على عمد من الرخام ، سعة البلاط الأوسط منها ٧٫٨٥ م بينما تبلغ سعة كل بلاط من البلاطات الثمانية الأخرى ٦٫٨٦ م ، ويزيد البلاط الاوسط كذلك فى ارتفاعه عن سائر البلاطات . وسقف مسقفه كله كان يتألف من سماوات (١) خشب مسطحة ومسمرة فى جوائز سقفه فيها ضروب الصنائع والزخارف المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى وصنع الفص وصنع الدوائر والمداهن ، وكل سماء منها لا تشبه أختها بل كل سماء منها مكتفية بما فيها من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بألوان زاهية مختلفة . وتحت كل سماء منها ازار من الخشب منقوش بآيات قرآنية ، ولم يتبق من هذه الأسقف اى شىء (١) ، وكان يعلو هذه السقف هياكل هرمية تمتد على امتداد البلاطات .

وقد عقد بين العمد الرخامية على أعلى الرأس عقود متجاوزة تقوم مقام الأوتار الخشبية وتربط الأعمدة فيما بينها عقود أخرى

---

(١) اى لوحات خشبية مسطحة بين عوارض مربعة .

(١) استطاع العالم الاثرى فيلا سكيث بوسكو أن يعيد تركيب جزء من سقف البلاط الاوسط بالمسجد كما كان فى عهده الاول .

نصف أسطوانية تحمل الجدران التي تقوم عليها السقف ، وتستند هذه العقود الأخيرة على أرجل من حجر المحور مما كان سبباً في ارتفاع السقف الى ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة .

وتستند الأرجل السفلى على وسائد تتألف من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر .

ويبدو مثل جميع العقود العليا والدنيا لونين أصفر فاتح واللون الأحمر فسحة تساوي الحجرة والآخر بحيث يتألف من هذا التعاقب فسحة حجرية وبلاطة صفوف متلاحمة من الآجر الأحمر تؤلف فسحة أخرى . واكتسب المسجد بذلك مظهراً زخرفياً بسيطاً وفي ذلك تأثيراً بالفن القوطي أو بفن اللومباردى الرومانى . وتتألف العمود من أسس رخامي وبدن وقاعدة رخاميين . وكان بعض هذه العواميد مدفون في أرضية المسجد وبعض الآخر ظهر فوق مستوى سطحها على نحو غير مستقيم . وجميع أعمدة هذا المسجد الأول وتيجانه قديمة أو قوطية تمثل أنواعاً ساذجة ، وقد أعاد المسلمون استخدامها من الكنائس المهدمة . وتشبه هذه التيجان نظائرها الرومانية في طالقة (1) .

ويتوج الجدران خارج بيت الصلاة افريز من الشرفات المسننة وتسندها دعائم قوية لا وظيفة لها في الحق سوى إضفاء صفة القلاع على المسجد ، مادامت صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة .

وحين يتجه المرء بطريقه داخل بيت الصلاة ما بين الأعمدة التي تحمل العقود ، توحي إليه هذه العقود المتكررة المحمولة على عمد

---

(1) طالقة مدينة شرقي اشبيلية كانت مزدهرة أيام الرومان وقد أجريت بها حفائر أثرية أسفرت عن اكتشاف كثير من الأبنية الأثرية .

بطبيعة انجذابه نحو ظلال في نور الشفق بحيث تمثل غابة من النخيل ، وينبعث من ضوء الصحن الذي يغشى المصر ضوء شاحب كما يتسلل من شبكات النوافذ المخرمة خيوط رفيعة من النور لا تفي بتبديد سقف المسجد ولكنها تعمل على احداث تأثير قوي ناشئ من ظلام خفيف يستثير الرهبة ، وهنا يستشعر المرء نفسه بعيداً عن مشاغل حياته ، ويجد مستقرها مهيئاً للتطلع الى ما وراء الحس في خشوعه مؤدياً له فرضه ، مقراً لعبوديته حسه ، ولاسبيل الى أن يكون تحقق معماري أكثر كمالا مما يوحي به هذا المثل الديني في بساطته وتجرده .

وعهد عبد الرحمن الداخل الى عبد الله صعصعة بن سلام (توفي في ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد بغرس صحن المسجد الجامع بالأشجار ، ومنع فقهاء المسلمين وأمراؤهم بعد ذلك هذه التقاليد . ويذكر ابن بطوطة أن في صحن جامع مالقة أشجار النارنج البديعة ويغلب على الظن أن هذا كان سبباً في تسمية الاسبان لصحون المساجد باسم النارنج Patio delos Naranjos ويذكر منتزر الرحالة الألماني الذي زار الأندلس عام ١٩٨٤ أن جامع المرية كان مغروساً بأشجار النارنج وكذلك كان شأن جامع وادي آش وجامع ابن عديس باشبيلية وجامع القصبة باشبيلية وجامع البيازين بغرناطة وغيرها ...

ونلاحظ أن عناصر بناء المسجد الجامع بقرطبة في مرحلته الأولى تكشف عن أصالة وابتكار في ابتداع النظام المزدوج للعقود وفي تناوب الآجر والحجارة بصنجات العقود وفي اتخاذ المساند المقلوبة . وليست ازدواج العقود فكرة زخرفية محضة بل ان لها غاية معمارية ، ترفع السقف الى ثلاثة أمثاله وذلك لانفاذ الهواء والضوء الى قبلته ، وخاصة أن نظام القبب لم يكن قد استخدم بعد في مساجد الاسلام . وقد أرجع مؤرخو الفن الاسلامي الاسباني أصل هذا الابداع الى عقود الجسور الرومانية وحاولوا مقارنة نظام العقود المزدوجة بنظام

مرحلة واندماجها في أجل معقود لجسر الرومان بماردة المعروف بجسر المعجزات (de los Milagros) ، إلا أن عقود جسر ماردة متخذة من الآجر بينما تتعاقب في الدعائم مع الكتل الحجرية في توافق وانسجام ، هذا إلى أن وظيفة العقود تدعيم عرضه وحجمها بحيث تقتضي حملاتها تماماً في جسر ماردة ، وفي اعتقادي أنه لا صلة بين قرطبة وماردة وأن عقود قرطبة عقود ابتكرها مهندسو هذا الجامع وأملتها عليهم عناصر البناء وموارده التي كانت في متناول يديه وخاصة الأعمدة القصيرة التي جمعها من الكنائس المهدمة .

المرحلة الثانية :

أنفق عبد الرحمن الداخل على بناء مسجده مبالغ طائلة بلغ نفقاته ما يزيد على ثمانين ألف مثقال وعشر مئة ألف ، ويغلب على الظن أنه أرجأ بناء صومعة المسجد إلى ما بعد تفرغه من هذا البناء الرائع بما ظهر فيه من مظاهر الإبداع والابتكار لا يمكن أن يكون قد استغرق عاماً واحداً كما يقول المؤرخون ، فقنع الأمير عبد الرحمن بأحد أبراج القصر المجاور للمسجد من جهته الغربية ليقوم مقام صومعة الجامع حتى يتهيأ له بناؤها فيما بعد ، ولكن الموت أدركه قبل إتمام المسجد فأكمله ابنه هشام في مدة (٧٨٨ — ٧٩٦) من حكمه في أربونة ، وذلك بأن زاد فيه صومعة بلغ ارتفاعها أربعين ذراعاً إلى موضع الأذان أي ما يقرب من عشرين متراً ، وبنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع ، وأقام الجامع على هيئته تلك إلى أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد اهتدى دون فلكس هرننديث مهندس الجامع إلى الموضع الذي كانت تقوم عليه الصومعة وأجرى فيه حفائر أثرية أسفرت عن كشف أسس قاعدتها المربعة وطولها ستة أمتار .

المرحلة الثالثة :

وولى عبد الرحمن بن الحكم الإمارة بعد أبيه (٨٢٢ – ٨٥٢) : وكان شاعراً أديباً محباً للهو والطرب . وهو أول من اتخذ رسوم الخلافة وأبهتها ، ورتب الدواوين ، وجمل القصور وأجرى إليها المياه ، وشيد الرصيف وسقايته ، وساعيته ، وأسس المساجد الجامعة في جميع أنحاء الأندلس . وأنشأ دار الطراز ، ونظم أعماله وأنشأ دار السكة بقرطبة ، وعلى الجملة رفع من شأن مملكته وجعل من قرطبة عاصمة جديرة بالخلافة .

وفي عهده تكاثر سكان قرطبة وأقبلوا عليها من كل أوب حتى ضاق عليهم بيت صلاتهم وكانت بلاطات المسجد الأقدم تسعاً فأنشأ عبد الرحمن الأوسط خلفها من امتدادها شرقاً وغرباً بلاطين زائدين عليها مصلين معها سنة ٨٣٤ فكمل عدد بلاطات المسجد أحد عشر بلاطاً استوسع به المسجد وزاده عن خاصرتيه ، ووصل هذين البلاطين في سقيفتين ووصلهما بالسقائف التي كانت ممتدة بجوف المسجد الأقدم لصلاة النساء ، عقد كل سقيفة منها على ١٩ سارية (١) ، وابتنى الأمير عبد الرحمن في مؤخر الصحن سقيفة جوفية نظمها بالسقيفتين اللتين بناهما جانبي صحنه شرقيه وغربيه .

وفي سنة ٨٤٨ زاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم في بيت الصلاة أول زيادة أجريت فيه وهي الزيادة الأولى البارزة من بين السبعة الأولى التي ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس ويرسم أن يكون ذلك من قبل قبلته في الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة بحيث تكون محدودة من الأرجل الحجرية الضخام

---

(١) السارية هي عمود من الرخام وجمعها سواري ومنها عمود السواري بالإسكندرية .

الماثلة اليوم فى وسط أبهاء المسجد والمتخلفة من جدار محرابات جامع عبد الرحمن الأول الى آخر المسجد فى منتهى المحراب الثانى ، وجمع فجر الآلات لنسقه واستكثر من عدد حذاق الفعلة لاحكامه ووكل بسيانه أكبر فتيانه الحصيين الأثيرين لديه نصراً وصاحبه صبوراً رغبة فى ايشك التمام مع احكام الصنعة ، وأشرف له على ذلك أيضاً محمد بن زياد قاضى قرطبة وصاحب الصلاة به ، ويبلغ طول زيادة عبد الرحمن ٥٠ ذراعاً وعرضها مائة وخمسين وعدد سواريها ثمانين سارية ، اذ مد عبد الرحمن الصفوف العشرة للعقود التى تؤلف احدى عشر ملاطاً على ثمانى مجموعات من العقود بحيث يبلغ عمق هذه الزيادة حوالى ٢٦ متراً .

ولا تختلف هذه الزيادة فى نظامها وعناصرها المعماريه عن بيت الصلاة الأقدم الا فى المسجد الملعوقة التى تنبت منها العقود بالطابق الأدنى اذ تقتصر على بروز محدب ، والعمد فى هذه الزيادة تعوزها قواعد وكلها منقوله من أبنية قديمة وكذلك شأن تيجانها فيما عدا بعض التيجان الاسلاميه ونخص بالذكر منها الأعمدة الأربعة التى كانت تلتصق بعضادتى المحراب الثانى ، الذى هدم عند زيادة الحكم للجامع ، وقد احتفظ الحكم المستنصر بهذه الأعمدة فى محرابه القائم فى وقتنا هذا .

ويفتح فى بيت الصلاة بابان فى جانبى المسجد الشرقى والغربى تبقى منها البابان المعروفان باسم سان استيبان (باب الوزراء) وباب دى لوس دیابیس (باب الأمير) فى حين هدم الباب الآخران عند زيادة المنصور لبيت الصلاة من جهته الشرقيه على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

وأخص ما يميز زيادة عبد الرحمن الأوسط هى أن مسجد المقرود المعلى تتخذ حلية مخدمه الشكل معتبر أول صوره للمساجد المفوفه التى أحدث منذ ذلك الوقت فى السطور والمنعقد الى أن أصبحت مؤلفه من ثلاثة فصوص زمن الأمير محمد الذى رمم عقود بيت الصلاة

مسجد جامع قرطبة

بمسجد عبد الرحمن الأول ، فأزاح عقدها وبالغ في إتقانها وأعادها إلى أول نشأتها . وبتطور هذه المئذنة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم تبلغ أعلى مراحل تطورها في زمن الحكم المستنصر ، فازدهرت وأصبحت زخرفية بحتة .

في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد بني عليه في هذه الزيادة مقبب ... من مسجد وزخرفه أتمها ابنه الأمير محمد سنة ٢٤١ هـ فاستوعب الكمال في أيامه إذ استوعب طرور المسجد وأوثق أبوابه وأقام المقصورة فيه عام ٢٥٠ هـ وكان أول من اتخذها هنالك من خلفاء بني أمية . ويعتقد ... نقش كوفي يشهد بهذا الإصلاح نصه « بسمله ... أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن بنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك ... في سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه ، مسرور و [نصر فتياه] » .

[illegible]

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال في الجامع ووضع فيه الأموال الموقفة لبيت المسلمين ، وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف . ويغلب على الظن أن بيت المال هذا كان يشبه بيت المال بجامع دمشق الذي ما يزال قائماً حتى اليوم وكذلك « قبة الخزانة » بجامع حماة وحمص وجامع المقامة في وسط الصحن . ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطاً معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح إلى المقصورة باباً كان يخرج منه إلى الصلاة فلا يراه أحد في مجيئه ولا انصرافه ولايتكلف له مؤونة قيام ولا إرصاد خروج . فكان أول من اتخذه من خلفاء بني أمية بالأندلس ، فانتفع بمنفعته كل من جاء بعده منهم .

المرحلة الرابعة :

كانت الصومعة القديمة [illegible] [illegible] صغيرة . وكان [illegible] [illegible] عبد الرحمن [illegible] [illegible] عملا . واتسع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] . وكان في مقدور الخليفة عبد الرحمن [illegible] أن يرمم المئذنة ولا [illegible] رأى [illegible] [illegible] المسجد [illegible] [illegible] [illegible] واتساعه . ففي سنة ٣٤٤ (٩٥٠ م) [illegible] صومعة أخرى عظيمة [illegible] [illegible] للخلافة [illegible] [illegible] مهندسين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] . [illegible] [illegible] في [illegible] بعد أن هدم [illegible] الشمالي للمسجد في [illegible] التي هدم منه صومعة [illegible] ومد [illegible] [illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] طرفيه [illegible] [illegible] [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] به [illegible] من جهته الأربع . وقد حفر أساسها حتى بلغ الماء ، وأتم بناء الصومعة الجديدة في ثلاثة عشر شهراً ، وكانت الصومعة الأولى ذات مطلع واحد فصير الناصر صومعته مطلعين ، وجعل سلميهما [illegible] فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها . وكان لكل مطلع منها مائة وسبع أدراج ، ونصب في أعلى الصومعة عموداً ركبت فيه ثلاث تفافيح تغشى [illegible] شعاعها وتخطف الأبصار بريقها السفلى والعليا مصوغتان من الذهب والوسطى من الفضة ، وفوق كل تفاحة منها رمانة صغيرة من الذهب المحض ، وكان ارتفاع كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف ، وكان طول كل جانب من قاعدتها المربعة ٨٫٤٨ م وكان بطانها قائما على أساس كتلتين من الحجارة موضوعتين بعرضهما بين كتلة طويلة طولها ١٫٥٠ × ٠٫٧٠ م . والواقع أن الجزء الداخلي من المئذنة لا يعدو أن يكون ازدواجاً لمئذنة هشام . وقد أثار هذا الابتكار إعجاب مؤرخي العرب فعبروا عن هذا الإعجاب في مدوناتهم التاريخية ، وبسبب ذلك تقسم المئذنة إلى قسمين مستقلين يفصلهما جدار مشترك ويوحدهما

سطح علوي ، وتدور المراقي في كل جزء منهما حول دعامة مركزية ، ولكل منها باب ، واحد يطل على الصحن والآخر يفضي الى الطريق الخارجي .

وقد أصيبت هذه المئذنة عام ١٥٨٩ بأضرار فادحة على أثر زلزال عنيف أحدث شقاً في بيت المؤذن وجزءاً من الصومعة نفسها ، وأدى تصدع الصومعة [illegible] بين عامي ١٥٩٣ و ١٦٥٣ الى ملء الفراغ بداخلها بالمونة ، وأحيط الجدار الخارجي بغلاف من الحجارة المقوسة القاعدة حتى يستقر له حمل الجسم العلوي الذي يتوجها به وهو جسم من نفس أسلوب الجزء العلوي الذي يتوج الجيرالدا بإشبيلية . وقد استطاع مهندس [illegible] قرطبة دون فليكس هرنانديث أن يكشف عن جدران الصومعة الاسلامية [illegible] في العهد الاسلامي ، وهو التصميم الفريد الذي شهد منه [illegible] النموذج الذي حدثنا عنه الادريسي وابن عبد ربه وابن بشكوال . ولم يتبق من المئذنة سوى جزء ارتفاعه ٢٢ متراً بينما تحتفظ من الدعامتين المركزيتين ما يبلغ ٢٦ متراً . وكانت أسقف الادراج تتألف من عقود صغيرة مرتبة متعارضة متصلة فيما بينها ولكنها تتدرج في الارتفاع كلما ارتفعت ، وكان يفصل بين كل مجموعة والاخرى [illegible] متجاورة متوازية ، وكانت القنوات مخصصة مدهونة باللونين الأبيض والأحمر تزينها زخارف هندسية .

وكان الجدار المطل على بيت الصلاة يزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة في حين كانت تزدان الجدران الأخرى بصفين من نوافذ ثلاثية الفتحات تحيطها عقود متجاورة . وكان يعلو جدران الصومعة إفريز من عقود صماء قائمة على عمد صغيرة ، وتكلل الصومعة شرفات مسننة . وقد استطاع العالم الأثري دون فليكس هرنانديث بفضل أبحاثه في المئذنة أن يهتدي الى نوافذ ، عقودها متجاورة للعادي

بونيه في مجنباتها شريط بارز . وتسميح (١) هذه العقود كامل يشع من مركز يقع على خط ماكنها ويحيط سمحاتها التي تتعاقب فيها اللون الأحمر والأبيض فصوص .

وقد اتخذت مئذنة الناصر هذه نموذجا لمآذن الأندلسية المغربية ، وكانت على حد قول ابن بشكوال « لا تعدلها صومعة أخرى » . وكانت ترفع في أعلاها شموع عند الاحتفال بليلة القدر ، وفي ذلك يقول أبو محمد ابراهيم ابن صاحب الصلاة الوسقى « والشمع قد رفعت على المنار رفع السعود ، وعرضت عنها عرض محمود ليحيى ملاعبة روائها القريب والبعيد ويستوى في هداية ضيائها الشقي والسعيد . وقد قوبل منها مبيض بمحمر ومعروض محمر بمصفر . فضحك سكانها ، وتبكي بمضحكها ، وتهلك بحشاشتها وتحيي مهلكها » .

ولم تقتصر أعمال عبد الرحمن الناصر على هذا الحد بل تجاوزته الى أعمال الاصلاح والترميم . فقد كان جدار واجهة بيت الصلاة قد تصدع بسبب الدفع المستمر الذي يقوم به العقود ، فقام بترميمه ، وبنى واجهة أخرى ملتصقة بالجدار القديم ، وأصلح باب سان استيبان وأقام عليه ظلة تتكئ على مساند ملفوفة من نفس مساند واجهة بيت الصلاة . وعلى هذه الواجهة بجوار المدخل الى البلاط الأوسط نقش تاريخي فيه « بسملة ... أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاه ببنيان هذا الوجه واحكام اتقانه تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر مع بقاء

---

(١) مسمح من سمحه وجمعها سمحات . والسمحات هي الكتل الحجرية التي يتألف منها العقد المقوس في البناء .

شرف الأثر وحسن الذكر فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلثمئة على يدي مولاه ووزيره وصاحب مدينته عبد الله بن بدر، عمل سعيد بن أيوب ».

المرحلة الخامسة :

قام الخليفة الحكم المستنصر بعد خلافته بتوسيع بيت الصلاة بعد أن ضاق بمصليه، إذ اتسع نطاق قرطبة وكثر أهلها ومعين المصلين في جامعها. فعهد إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي بالنظر في سوق الصخور، ورسم على أن تكون الزيادة بعد جميع البلاطات جنوبا على اثني عشر عقدا. وأقام على مدخل البلاط الأوسط من هذه الزيادة قبة كبرى مخرمة يبدو أن الغرض منها كان لإدخال الضوء، كما أقام قبة أخرى عليه في أسطوان المحراب الجديد عام ٣٥٤ هـ وأحاط هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين تؤلفان معها ما يشبه المجاز في الكنائس. وقد قلد مهندس الحكم في نظام هذه الزيادة نظام المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس، ففيهما نلحظ نظام البلاط الأوسط الذي تعلو مدخله قبة البهو (ويعادلها درجته نسيج مركبا من ست وثلاثين ألف وصلة مصنوعة من أكارم الخشب. وجملة القول أن زيادة الحكم زودت الجامع سعته وإمتاع أجزائه وعظمه وذلك بإقامته المقصورة وتتويجها بثلاث قباب وتوسط المحراب واجهة المقصورة بحيث يكتنفه عقدان متماثلان الأيمن منه مشرع يؤدي إلى الساباط والأيسر يفضي إلى مخزن الجامع.

القباب: قباب جامع قرطبة قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها بحيث تؤلف أشكالا نجمية تقوم في وسطها قبيبة مفصصة، وقد كسيت هذه الضلوع من أعلاها بالبلاط، وطبقت فيما بين الضلوع زخارف جميلة، وسقفت من أعلى بالقراميد. وقد بحث كثير من مؤرخي الفنون الإسلامية في أصل القباب ذات الضلوع المتقاطعة والمطوية السائدة في

* * *

القائلة بأنه مشرقي ، وليس هناك مجال للشك في أن قبب جامع قرطبة ونقصد بها القبب الأولى ذات الضلوع التي ظهرت في المغرب الاسلامي كانت ابتكاراً ابتدعه مهندس الخليفة الحكم المستنصر ، فإن قبب أشبط أو أحبط التي يعتقد أنها الأصل الذي حذته قبب قرطبة ترجع الى عصر متأخر كثيراً عن قباب قرطبة اذ أنها ترجع الى سنة ١١٩٣ م في حين لاتتجاوز قبب قرطبة القرن العاشر . وكذلك ترجع قبوات المضلوع بجامع أصفهان الكبير الى القرن الحادي عشر وتعرض نمطاً أولياً للضلوع المتقاطعة شبيه الى حد ما بالقبب القرطبية ، ولا يمكن مع ذلك أن تكون قد اتخذت أنموذجاً لقباب قرطبة . ويعتقد الأستاذ لامبير بحق أن أصول قبب قرطبة وقبوات أرمينية لابد أن تكون واحدة ، وأنها قد تكون في احدى المقاطعات البيزنطية أو الساسانية بآسيا ، واستطاع أن يلاحظ الشبه القوي بين قبب جامع قرطبة وقبة المحراب بجامع القيروان ، على الرغم من أن ضلوعها المشعة من مركز القبة لم تصل بعد الى المرحلة التي تنفصل فيها عن غطاء القبة ، وإن كانت في الوقت نفسه أكثر بروزاً من ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان .

وتمتاز هذه القبوة ، أو القبة المخرمة الكبرى على حد تسمية ...نظام لها ، بتعدد نوافذها ، اذ يبلغ عددها ست عشرة نافذة ، أربع في كل جانب من جوانب قاعدتها ، عقودها يتناوب فيها المتجاور وذو الفصوص الثلاثة ، ووظيفة هذه القبة انفاذ الضــوء الى بيت للصلاة مسيح .

وقد انتقل نظام التقبب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلاً في صور مختلفة بمسجد باب مردوم ، ومن نماذجه ما يمثل شكلاً رباعياً منحرفاً ذا أقطار بحيث يبدو كأنه قبوتان من الطراز القوطي احداهما داخل الأخرى ومنها مايبدو على شكل مثمن . ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة . ثم انتشر استعمال القباب ذات الضلوع بعد ذلك الحين انتشاراً كبيراً فشهد ...

ذلك العدد الهائل لدى نراه في الكنائس المسيحية بطليطلة ، مثل عدة مصلى سيتي في دير سستق وقبة مسجد يدعى « لاس توريرس » وكذلك في مصلى عصر بجعفرية سرقسطة القائمة على الضلوع ، وقد استخدمها كذلك حتى ظهرت العقود المفرصة في عهد دولتي المرابطين والموحدين ، وهي قبب عريضة وطليطلة انطلقت التأثيرات وتغلغلت في العمارة الأوروبية الإسبانية والفرنسية . فطغت على نظام لتقبيب المصلى في ... بمسانة بقبوة مصلى موريس دل ريو بسفادرة ومرح دير موساك وقبوة أولورون وأوسبيتال سان بلير بفرنسا .

العقود المفصصة والمتشابكة : شاع استخدام العقد الثلاثي الفصوص « عقد حدوة الفرس » في زيادة الحكم المستنصر ، وركبت فيه « محاور متعددة منشئة فيها ضروب من العقد المفصصة » . وتكسب تأثيث شبكة من العقود وقد أدت هذه الفكرة إلى ابتداع نظام معماري معقد ، فإن تشابك العقود كان من شأنه أن يضفي على البناء روحاً من الجمال والوثاقة في آن واحد ، فأقيمت قباب الجامع على شبكات من هذه العقود المفصصة والمتداخلة ، وبذلك ضمن توزيع الضغط على سائر الأركان بعد أن ارتبطت أجزاء العقود فيما بينها .

المحراب : يعد محراب جامع قرطبة أجمل ما فيه ، فقد اهتم به مهندس الحكم باعتباره أجمل مكان بالجامع وهو الذي يحدد اتجاه القبلة ، والذي أقيمت القبة على أسكوبه وبلاطه : « مقوسة أحكم تقويس ووشمة بمثل الطواويس حتى كأنه بالمجرة مترطق ومقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ومن رسومه نتف من قوادم الحمام أو كسف من ظلل الغمام » .

وعلى واجهته سبع عقود ثلاثية الفصوص مرجحة دقيقة التكوين والزخرفة يعلوها إفريزان بين بحرين من الفسيفساء المذهب على أرض الزجاج اللازوردي ، وتحت هذه العقود إفريزان آخران ، وعلى

رأس المحراب جامة من الرخام مشركة محفورة معمقة تشبه القوقعة المجوفة ، ويؤزر المحراب من واجهته لوحتان حسيتان من الرخام ، كتب فيهما نقوش وتشجيرات غاية في الروعة والجمال .

الساباط وأقام الحكم ممراً مرتفعاً إلى مصلاه بالمسجد وصله بساباط يربط بين المسجد والقصر المجاور ، ويبلغ عرض الساباط أربعة أمتار ونصف . ويمتد بطول جدار القبلة ويتألف من طابقين الأدنى يتصل بجوفه المحراب والأعلى ممتد من أول الجدار إلى آخره . وينقسم إلى خمس غرف متصلة على جانبي المحراب بحيث سقف وعقد ملاصق للجدار . ويفصل بين هذه الغرف ثمانية أبواب . وتغطي هذه الغرف المتصلة في الطابق الأدنى قبوات نصف أسطوانية .

وعلى عقد المشرع إلى الساباط نقش كوفي نصه « الملك لله على هدى وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذا المشرع إلى مصلاه فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد بن هشام ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب الحمد لله » .

المرحلة السادسة والأخيرة :

وفي سنة ٣٧٧ هـ شرع المنصور في زيادته بالجامع وذلك بإضافة ثماني بلاطات على طوله كله من جهته الشرقية عندما زاد عدد السكان بقرطبة على أثر وفود قبائل البربر من العدوة وأفريقية ، وحين ضاق المسجد الجامع عن حمل مصليه ، وكان السبب في اختياره للجهة الشرقية ، اتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة واقتراب الجهة الجنوبية التي اعتاد خلفاء بني أمية الزيادة منها من نهر الوادي الكبير . وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ،

ولم يقتصر مع هذا على سائر الزيادات جودة ماعدا زيادة الحكم . وتحقق هذه الزيادة برفع ملكية الدور المجاورة للجامع من جهته الشرقية وعوض أصحابها عنها بالمال والعقار . ودام العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفاً وخدم فيه بنفسه . وذكر ابن بشكوال أنه أحضر أعلاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها يستخدمون في هذه . وذكر الشقندي في رسالته أن زيادة ابن أبي عامر من تراب نقله النصارى على رؤوسهم مما هدم من كنائس بلادهم . مما ذكر أيضاً أن ثريات الجامع من نواقيس النصارى . ويغلب على الظن أن المنصور أحضرها من كنيسة شنت ياقب بكومبوستيلا في غزوته الثامنة والأربعين لجليقية عام ٣٨٧ هـ . إذ هدم جيشه مصانع المدينة وأسوارها وكنيستها وعفى آثارها ، « ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً كأن لم تغن بالأمس » .

ولم ينس المسيحيون بعد هذا الخطب ذكراه عالقة بأذهانهم حتى إذا ما فتح فرناندو الثالث قرطبة ، أمر المسلمين بدوره بحمل نواقيس شنت ياقب إلى كومبوستيلا على ظهورهم .

١٩

وبذلك أصبح للمسجد بعد زيادة المنصور تسعة عشر بلاطاً ، ولذلك فقد المسجد تناسقه وتعادل أجزائه ، إذ أصبح بلاط المحراب الذي كان يؤلف محور بيت الصلاة لتوسطه له متطرفاً . وفتح المنصور في الجدار الشرقي لبيت صلاة المسجد فتحات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم وتخلف عن ذلك عدد كبير من الدعائم المطوية وبقايا الأبواب الشرقية لزيادة الحكم . وفتح المنصور ثمانية أبواب في الجدار الشرقي للمسجد بصورته النهائية وهو نفس عدد الأبواب النافذة إلى بيت الصلاة في الجدار الغربي فأصبح لبيت الصلاة ستة عشر باباً ، يضاف إليها بابان جانبيان يفضيان إلى الصحن ، وثلاثة أبواب في الجدار الشمالي . وصفحت هذه الأبواب ملبسة بالنحاس

الأصغر مجزعة محرابا عجيبا بديعا يعجز البشر ويبهرهم ، وفى كل باب حلقة فى مهنية الصنعة والحكمة .

تحويل المسجد الى كاتدرائية :

ظل مسجد بعد زيادة المنصور على صورته حتى نهاية عهد الحكم الاسلامى فلم يضف اليه أى شىء بعد [illegible] حتى عهد المرابطين والموحدين . ولما سقطت قرطبة على يدى فرديناندو الثالث عام ١٢٣٦ حضر الأسقف دى [illegible] وسمى المسجد [illegible] باسم العذراء ، فسمى بكنيسة سانتا ماريا الكبرى . ومع ذلك لم يلحق أحد من الجامع بتحويل شيئا كثيرا فى صورته الخارجية . وفى سنة ١٣٧١ أقيم فيه [illegible] المعروف بمصلى [illegible] فى [illegible] الحكم . وقد غطيت [illegible] بزخارف مدجنة محفورة فى الجص لا تختلف فى شىء عن زخارف قصر الحمراء والقصر باشبيلية ، ثم أقيمت عليه قبة مقرنصة تتقاطع فيه الضلوع البارزة على مثال ضلوع قباب المسجد ، ويعتقد العالم الأثرى دون ليوبولدو توريس بلباس أن هذه القبوة تشبه الى حد بعيد قبة جامع قصبة اشبيلية التى اندثرت منذ أمد بعيد . ويرجع الى هذا العهد أيضا الزخارف المدجنة فى الباب الرئيسى للمسجد ، المعروف بباب الغفران .

ويلاحظ أن الاسبان احتفظوا حتى هذا العهد احتراما كبيرا للجامع رغم تحويله الى كنيسة ومنعوا من تغيير ما يكفى لاقامة شعائر دينهم ، ولكن منذ القرن الخامس عشر أحدث بعض التغييرات الأساسية تشوه بنية المسجد ، ففى سنة ١٤٨٩ هدم الأسقف ايجو منريكى عقود وأعمدة البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى فلاعيوسا حتى جدار الجامع الغربى ، وأنشأ جدارين طوليين رغبة فى عمل مجاز يغطيه سقف خشبى قائم على عقود قوطية . وفى سنة ١٥٢٣ شرع الأسقف دون ألونسو مانريكى فى هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن

للوسط والمنصور لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع . وعرض المؤلف لمدى عظمة قرطبة وبعض أبنيتها في هذا المشروع الذي بنى من شأنه هدم وحدة معمارية لأثر من أجمل [illegible] ، وعرض الأمر على شارلكان [illegible] على هدم [illegible] دون معرفة الجامع . وقد تم [illegible] عام ١٥٢٣ [illegible] [illegible] ورأى الجامع [illegible] [illegible] من الشكل الفنى قوامها أعمدة لا تدرك [illegible] فوقها عقود تعلوها عقود أخرى مما يولد احساسا بعظمته [illegible] . ورأى أعمال التخريب [illegible] موجها كلامه [illegible] وأى أعمال الجنس الكنسي عدده ، [illegible] لو كنت أعلم [illegible] لما [illegible] من يمس البناء القديم لأن ما ستبنونه موجود في كل مكان وما هدمتموه فريد في العالم » .

ثانيا — اهم المساجد الاندلسية الاخرى

المسجد الأموى الجامع باشبيلية :

بناه القاضي عمر بن عدبس سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ ٨٢٠ م) بأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط . وفي المتحف الأهلي للآثار بمدينة اشبيلية بدن عمود من الرخام الرمادي ارتفاعه ١٧ر٣ م وقطره ٤٢ر٠ م فيه نقش كوفي قديم حفر حفرا أشبه شيء بحفر السكين نصه : « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الأمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضي اشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون » وقد قرأ نص هذا النقش ابن صاحب الصلاة مؤرخ دولة الموحدين ، مع تحريف بسيط في مدونته عن اشبيلية في عهد الموحدين . وذكر أنه « وجد في السارية التي في البلاط الذي

من جهة الشرق المقابل لمحراب جامع العدبس ، ويعتبر هذا النص على حد قول توريس بلباس أقدم نقش عربي معروف في اسبانيا .

ويذكر الحميري صاحب الروض المعطار أن بيت الصلاة يستند على احدى عشرة بلاطة تتجه عمودياً على جدار القبلة ، وفي هذا يشبه جامع قرطبة قبل زيادة الأولى لعبد الرحمن الأوسط ، ويطلعنا على النص أن البلاط الأوسط كان أكثر اتساعاً من بقية البلاطات ، وقد ذكر ذلك المؤرخ الاسباني تيرادو دي ألدينا عند وصفه الجامع قبل هدمه . وكانت مئذنة الجامع تستند على الجدار الشمالي للجامع بحيث تبرز عنه . ويذكر توريس بلباس أن طول جدار القبلة كان يتراوح ما بين ٤٨ ، ٥٠ م ولم يكن المسجد مربعاً بل مستطيلا يزيد طوله قليلا عن عرضه . وكان صحنه المعروف اليوم بصحن البرتقال ، مغروساً زمن المؤرخ الاشبيلي مورجادو في نهاية القرن السادس عشر بأشجار البرتقال . وكانت تتوسطه جفنة (١) من الرخام تنبثق منها نافورة .

وظل المسجد بعد بنائه على حالته دون أي زيادة ، ثم أصيب عام ٤٧٣ هـ (١٠٧٩) بزلزال هدم الجزء الأعلى من الصومعة فرممها المعتمد بن عباد في شهر واحد كما تشهد على ذلك اللوحة التاريخية التي اكتشفت في الجزء الأدنى من الجدار الجنوبي للمئذنة . ويغلب على الظن أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، وكان قد ضاق عن حمل المصلين الذين كثر عددهم باشبيلية في عهد المرابطين والموحدين . ولعل ذلك كان السبب في حمل الخليفة أبي يوسف يعقوب على بناء مسجد جامع كبير يتسع لحشود المصلين . وبعد تشييد جامع الموحدين ارتفعت الخطبة من جامع عمر بن عدبس سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤) وأزيل منبره من موضعه ثم اندرج ذكره على مر الأيام . الا أنه أعيد الى القسم

---

(١) حوض قاعدته مفصصة على شكل نصف برتقالة .

موضعه في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور ، ورفع اليه المزيد أبو العباس دري معرداً على ما وصف ثم حمله جمع من عدس مس مصدح ذكره منه أن جامع اشبيلية القديم قد تحنى واعتل من داخله وخارجه ، وأن جوائز السقف منه قد عفت أطرافها اثابته على سلاطنه في تحطيم ، وأن خمسه من جهته الغربية قد مالت ويخاف على الجامع انهدم » .

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة تأثر بذلك وأمر ، اشفق بذلك وأمر المهندس والعرفاء من أهل الصناع متلاقيه ، فحضر العرفاء به . وأدخلوا تحت أطراف الجوائز ركائز وكحولاً من الخشب وضبعوا تحت بالألواح الخشب حتى قويت أصول الجوائز المذكورة وبدوا به أماحاً من الحجر العددي من جهة حائطه الغربي وقاية له من الميل الذي فيه من الاندفاع ويكون له أنفع انتفاع وسطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة ، وتتبعوا أقواسه بالجص والجيار ، وكشفوا عن سقفه وبدوا ما وهى منها حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله وجميع أعماله . وكان هذا النظر لفاضل من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شهر جمادى الأولى من عام اثنين وتسعين وخمسمائة » (٣ مايو سنة ١١٩٥) وبعد اصلاحه أعيدت اليه الصلاة . ولما سقطت اشبيلية على يدي فرناندو القديس تحول المسجد الى كنيسة تحت اسم سان سلفادور . ثم أصيبت المئذنة في ٢٤ أغسطس ١٣٥٦ على أثر زلزال عنيف هدم جزءها العلوي . ثم أقيم طابق النواقيس بعد هذا بقليل . ثم هدم المسجد بأكمله في ١٦٧١ فيما عدا المئذنة ، ووضع حجر الأساس في الكنيسة الجديدة ودام بناؤها حتى ١٧١٢ . ولا تعبر مظهر الصحن في القرن السابع عشر عنه في العهد الاسلامي ، وكل ما بقي من المسجد لا يعدو الجزء الأدنى من البرج حتى ارتفاع ٩٫٥٠ م . وطريقة بناء هذا الجزء تشبه نظام بناء قصبة مردة التي شيدها الأمير عبد الرحمن الأوسط . وقد عثر بين أحجار هذا الجزء على لوحة رخامة كبيرة عليها

نقوش كتابية لاتينية تشهد بأن أحجار المئذنة الاسلامية من أبنية رومانية سابقة يغلب على الظن أنها من أحجار السور الروماني بالمدينة. وفي داخل المجموعة يدور درج حلزوني عرضه ٨٠ سم حول عمود اسطواني ضخم . ويمثل هذا النظام درج بين جوانب وسنتناوله بعد قليل . وهما مرجحان في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط كما يشبه البرج الأدنى من مئذنة من طوبون الحربية التي يعتقد أنها من منتصف لاحق لمنتصف القرن الرابع عشر ويعتقد العالم الأثري [illegible] توريس بلباس أن أصل الأبراج الأندلسية مأخوذ من معمودية جامعة بمرماطة .

المسجد الجامع بتطيلة :

أقام هذا المسجد الأمير موسى بن موسى عامل تطيلة وزعيم بني قسي في الثغر الأعلى وكان قد استقل استقلالاً جزئياً بهذه المنطقة ، وهو الذي زاد في المسجد الأبيض بسرقسطة عام ٨٥٦ ، وبعد فتح روبرون كونت مدينة بيرش مدينة تطيلة فجأة عام ١١١٤ بعد أن شرع في ذلك ألفونسو المحارب ، وبقي روبرون سيداً على المدينة بعد أن عقد عهداً مع سكانها المسلمين في أن يبقيهم حولا كاملا أحرارا في شؤونهم وفي دورهم وفي مسجدهم المسجد الجامع ، ثم حول المسجد بعد ذلك إلى كنيسة ، فأقيمت به الشعائر المسيحية باسم سانتا مريه العظمى ، وفي احتفال حافل حضره عدد من الأساقفة ، ثم أقيمت به في منتصف الثاني من القرن الثاني عشر كاتدرائية . وقد عثر في أثناء أعمال الإصلاح التي أجريت بها أخيراً على بقايا عناصر معمارية تتعلق بالمسجد الجامع ، ومع أن هذه البقايا قليلة للغاية إلا أن قيمتها كبيرة لأنها تضيء بعض المشكلات التي أحاطت بالفن الإسلامي في المنطقة المعروفة بالثغر الأعلى . وكنا لا نعرف عنه حتى وقتنا هذا شيئاً إلا عن طريق بقايا قصر الجعفرية بسرقسطة . ولكن بقايا جامع تطيلة بعيدة عنه كل البعد إذ تعبر عن فن ممتاز بروعته ويفوق بعظمته الفن القرطبي المعاصر له .

وبكل ما عثر [illegible] عدة مساند ذات لفائف وعقود مزدوجة على شكل حدوة الفرس . وتحلى حروفه بتوريقات تعد غاية في الروعة والجمال ، ويوجد من الحجر أشبه ما تكون بمصاطب الباب بها زخارف هندسية منقوشة على خطوط معقوفة تتفق والأسلوب الكلاسيكي ، وشرفات مسننة من المرمر . ويزدان المسجد المشار اليها ، وتتبع النظام القرطبي على نحو أكثر تطوراً ، فارسم أو خمس لعقود مصفوفة في قوس مقعر تكسوه توريقات نباتية محفورة حفراً مائلاً يتوسط سيقانها شدح وتتألف من أوراق ووريدات وفق الأسلوب البيزنطي .

جامع باب مردوم بطليطلة (كنيسة الكريستودي لالوث) أطلق هذا الاسم على المسجد الذي أقيمت عنه كنيسة الكريستودي لالوث [illegible] في باب مجاور [illegible] كان يعرف بالباب المردوم . وكل ما نعرفه عن هذا المسجد نقش تاريخي يعلو الواجهة ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة . فتم في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (ديسمبر ٩٩٩ — يناير ١٠٠٠ م) . ويؤلف هذه الكتابة قطع من الآجر مدرجة على سطح البناء في افريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة . والمسجد صغير لايتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار مشيد من حجر الجرانيت والآجر . وكان مسجداً ثانوياً بالمدينة حول الى كنيسة بعد استرداد طليطلة بقليل ، ثم أطلق عليه اسم سانتا كروث ووهبه ألفونسو الثامن لاحدى الجمعيات الدينية ثم أضيف اليه بعد ذلك من جانبه الشمالي الشرقي رأس على هيئة حنية على الطراز المدجن .

ومظهر البناء يشبه معظم الكنائس البيزنطية اذ أن تصميمه يتحد شكل الصليب الاغريقي المدرج في مربع يتوسطه أسطوان تعلوه قبة من حولها تسعة أساطين مقببة . ويعتقد الأستاذ لامبير أن البناء في

مجموعة شبيهة بكنيسة الكارولنجية بجرميني دي بري على أنه يرى أنه إذا كان المسجد منحرفاً في تخطيطه عن المعهود المألوف فليس هذا مشتقاً من معبد سكمشس الميرطية أو كما يزعمون من أن هذا المسجد كان كنيسة قوطية ، وإنما هو ناشئ من الفكرة التطورية أو الاهتمام القوي بالتنسيق والاحترام الشديد للمحراب ، فإن جدران المسجد أصبحت جميعاً تبعاً لهذا متجهة نحو الجنوب الشرقي .

ويتألف المسجد من تسع بلاطات يتقدمها أربعة أعمدة تيجانها مرصعة قديمة ، وتقوم عليها اثنا عشر عقداً متجاورة . وينفتح في الشمال الشرقي للمسجد ثلاثة عقود متجاورة تفضي إلى البهو تعلوها ستة عقود متجاورة تبدو في سنجاتها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة توالي الحجر والآجر على نفس نظام عقود المسجد الجامع بقرطبة . ويحيط بكل منها عقد زخرفي مثلث الفصوص . وقد تعرضت هذه الواجهة لإصلاحات كثيرة ، أما الواجهة الجنوبية الغربية وهي الرئيسية فتطل على الطريق المؤدي إلى الباب المزدوج بثلاثة عقود أخرى في أعلاها النقش الذي أشرنا إليه ويتفق أسلوبه والتقاليد المرعية العربية . والعقد الأوسط محدد أما العقدان الجانبيان فأحدهما وهو الأيمن مجوف على نظام عقود المسجد الجامع بقرطبة والأيسر مفصص . ويعلو العقود الثلاثة عقود متجاورة وتتقاطع هذه العقود فيما بينها مرتكزة على سبعة مساند مزررة ، ويعلو هذا الصف من العقود إفريز تشغله شبكة مخرمة من المعينات تتألف من قطع الآجر الموضوعة حاسماً . ونظام التقبيب به قائم على تقاطع الضلوع المتجاورة في صور مختلفة . منها ما يمثل شكلاً رباعياً مخرماً ذا أقطار بحيث يبدو كأنه قنوات من الأضلاع الوسطى ، أحدهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد مقطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة .

• وتعقد الأعمدة التي تتقدم المحراب ثلاثة عقود • وكلها معرض مطور أرثها [illegible] مع هرجمة ، ويرى [illegible] أن [illegible] تصور البحث أثر سمو زخرفة [illegible] هندسة وهو ما أوقع بهم أهل الأندلس • [illegible] أن تؤدي أية هذه الاستكرابات [illegible] ثورة [illegible] في العمارة كما [illegible] سمو العمارة القوطية لدين أهدوا من هذه [illegible] وحرف المسجد الجامع تذكارات وزخرف المسجد الجامع بقرطبة في زيادة الحكم المستنصر [illegible] في تناوب الألوان أو في شكل العقود •

(ج) المسجد الجامع بالمرية :

لم يبق من [illegible] المسجد في عهد ملوك الطوائف بعد [illegible] معدد الأعظم [illegible] المسجد الجامع بقرطبة الذي بني ما بين ١٠١٦ ، ١٠٣٧ • وكل ما بقي من مساجد هذا العصر لا يعدو بقايا قليلة ، منها مئذنة جامع المرابطين المعروفة اليوم باسم برج سان خوسي بغرناطة ، وبقايا مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة وبقايا مسجد القناطر بقادس •

ويعتقد العالم الأثري توريس بلباس أن هذا الجامع قد شيد بعد زيادة الحكم المستنصر لجامع قرطبة بسنوات قليلة ، وأنه كان يتألف من خمس بلاطات ومحراب تخطيطه مربع (طول ضلعه ١٫٨٠ مترا) ، تعلوه قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا • وكان نظام البناء في جدار المحراب الذي تبقى من المسجد يخضع للنظام القرطبي المعروف ، وقوامه تناوب حجرين موضوعين عرضاً مع حجر موضوع طولا • ويرى هذا النظام في أعمال عبد الرحمن الناصر بجامع قرطبة ٩١٢ - ٩٦١ وزيادة الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦) • ونظام المحراب المربع ظهر في جامع الباب المردوم بطليطلة ومسجد القناطر في بورجو دي سنتا مرية • وأغلب الظن أن هذا الجامع قد بني في السنوات

الأخيرة من القرن العاشر . أما القبوة المفصصة من هيئة عقد تزين الفراغ الواقع بين ضلوع قبة المسجد الجامع بقرطبة .

ثم أضاف خيران العامري (٤٠٣ — ٤١٩ , ١٠١٢ — ١٠٢٠) الذي ولاه المنصور بن أبي عامر المرية ، البلاطين الجانبيين وكانا أكثر من البلاطات الأخرى اتساعاً كما كان الحال في جامع قرطبة . ويمكن نسبة الزخرفة الأولى بالمحراب الى هذا العصر . وتنحصر هذه الزخرفة بالعقود المدمجة المصمتة بالأقسام الوسطى . ونرى مثل هذا التخطيط في زيادتي الحكم المستنصر والمنصور بجامع قرطبة . أما محاريب تلتوي حوامل الأركان المكشوطة فيمكن معرفتها مثلك محاريب التي شاهدها في جامع قرطبة .

ويمكن الى هذا الجامع الأول نسبة مساند ذات عقود أو فصوص تشبه مساند واجهة الصحن بجامع قرطبة التي ترجع الى عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٦ هـ . ويشف أسلوب القطع المرية بالزخارف النباتية عن تطور لأسلوب التوريق الذي نراه بزيادة المنصور ، ويمكن تأريخها في القرن الحادي عشر ، وتبدو فيها أوراق مبسوطة مقسمة الى أصابع وغالبا ما تكثر التموجات بأطرافها ونحو عدد من التحدبات والتخريمات المتصلة وانما تقتصر على تخريمات منفصلة . وزخارف التوريقات والتشجيرات تكسو الشريط الأوسط من المساند ذات الفصوص تشبه زخارف المساند في زيادتي الحكم والمنصور بجامع قرطبة وان كنا لا نرى نظيراً للزخارف النباتية التي تكسو جوانب هذه المساند بجامع المرية . ومساند جامع قرطبة تخلو جوانبها من هذا النوع في حين تشبه زخارف مساند المرية بزخارف مثيلاتها بالجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما نقطع بأنها ترجع الى عهد المعتصم بن صمادح (٤٤٣ — ٤٤٤ هـ) .

أما العقود الصغيرة الصماء القائمة على عمد برحابها المقامة على الزوايا الجنوبية والفصوص المتصلة بحدبات معقودة مترجع الى عصر الموحدين وسواء في المساجد الموحدية مثل جامع الكتبية والقصبة بمراكش .

وقد وصفه مترزر الرحالة الألماني عام ١٤٩٤ بأنه كان من أجمل وأروع مساجد مملكة غرناطة وكان يتألق بمئات الثريات وكان يضم كنوزاً لا حصر لها ويحيط به من القومة نحو خمسين قيماً وكان عرضه ٤٥ متراً وطوله نحواً من ٦ر٧٠ متراً .

وكشف ملاطانة تتجه عمودياً على جدار القبلة في محراب صغير . وهي ملاط أوسط أكثر البلاطات اتساعاً . وقد أسفر البحث الأثري عن عدة سنجات عقود من الحجر مطلية باللون الأحمر . وكان عقد المحراب متجاوز بينما تتجوف في سنجاته كتلة ملساء وكتلة مكسوة بالزخرفة .

أما الصحن فكان مزروعاً وفقاً لوصف مترزر بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشاً بالرخام ويتوسطه نافورة للوضوء .

(٤) المسجد الجامع بقصبة اشبيلية :

لم يتبق من عمائر الموحدين الدينية في الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بقصبة اشبيلية الذي بناه الخليفة أبو يعقوب يوسف . وكان المسجد الجامع باشبيلية كما سنراه بعد قليل احتذاء لجامع قرطبة الذي يعتبر مثلاً احتذاه مهندسو جامع اشبيلية . وقد شرع أبو يعقوب يوسف عام ١١٧٢ في بناء جامع اشبيلية الأعظم وكان محباً للفنون ومولعاً بالعمارة والتشييد . وكانت اشبيلية مدينته الأثيرة الى نفسه ، وحاضرة دولته في الأندلس أقرب الى قلبه من مراكش عاصمة

أمير طوريته . إذ ولد في قرطبة وقضى في إشبيلية جزءاً كبيراً من طفولته وتأثر برقة الأندلس وفتن بسحرها وراقت له مظاهر الثراء التي كان ينعم بها الأندلسيون . فتخلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتقشفهم وأقبل على الترف وانغمس فيه مقلداً العصور وساعد وحرص على تحصين حاضرة ملكه في الأندلس بكل ما من شأنه تعمير والتمصير . وكان من نتائج ذلك أن نشطت حركة عمرانية في هذه المدينة واتسمت بسمة جديدة بطابع الأصالة والجمال احتفظت فيه أسسه التي تميزت بها عمارة الموحدين مع التجديد والغلو في الحشد الزخرفي وتتبع إحدى خصائص عمارة الأندلس منذ خلافة الأمويين في قرطبة حتى عهد ملوك الطوائف .

أمر أبو يعقوب في ١١٧٢ م بخطط موضع الجامع بعتيق مهدمت ها ديار داخل قصبته وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسه وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل اشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة . وكان جامع اشبيلية المعروف بجامع العدبس قد ضاق بأهله فكانوا يصلون في رحابه وأفنيته وفي حوانيت الأسواق المتصلة به فيعسر عليهم تكبير بالفريضة الأمر الذي دعا أبا يعقوب إلى بناء هذا الجامع الجديد توسعة للناس . فأسسه من البناء بالآجر والجير والجص والأحجار وأسس أرجله المعقودة مطبقات بلاطاته تحت مستوى سطح الأرض وجمع له العملة وأحضر الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة وظل البناء مستمراً حتى كمل بالتسقيف وقارب جامع قرطبة في الاتساع وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسه وصاحب تقييد الإسحاق أبو داود يلول بن جلداسن وكان جامع اشبيلية يضم ١٧ بلاطاً تتجه من الشمال إلى الجنوب وتمضي بذلك في اتجاه القبلة كما هو الحال في بلاطات جامع قرطبة ، وتنقسم هذه البلاطات لأربعة عشر أسكوبة ويمكن تقدير اتساعه على وجه التقريب فيما يلي

١٥٠ متراً في الطول ، ١١٠ متراً في العرض . وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعاً حيث يبلغ ٧٫٧٠ متراً وكذلك كان اتساع البلاطين المتطرفين ، أما سعة البلاطات الأخرى فلا تعدو ٦٫٤٠ أمتار ويبعث على الظن أن أسكوب المحراب كان أكثر اتساعاً كذلك من الأساكيب الأخرى ومن المرجح أن عقود جامع اشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم الصحن . أما العقود فكانت متجاوزة ومنكسرة بعض الشيء ، وكانت مخارجها تخرج من سمك الدعائم كما يبدو ذلك في عقود الصحن . وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة من جوائز الخشب . ويبعث على الظن أن هناك ثلاثة قباب تقوم فوق الأسكوب ثلاثة ناشئة من تقاطع البلاطات الكبرى بأسكوب المحراب ، وأن هذه القباب كانت من المقرنصات كما في جامع الكتبية أو على نحو ما نشاهده في مقصورة سان فرناندو بجامع قرطبة كما يرجح الأستاذ توريس بلباس . وقد أشار ابن صاحب الصلاة إليها عند قوله « واحتفل العرفاء واستغرقوا ومجدوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاحتفال في العمل بصنعة الجص والأصباغ بالطلاء وتحرير الخشب بصنعة الأجمل » . وأعلى العرفاء عن يسار المحراب « ساباطاً في الحائط يمشي في سعته الماشي ، معداً لخروج الخليفة عليه من القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة ... وعلى يمين المحراب أيضاً في حائط الجامع معقود ملتصقاً لكون المنبر فيه عند إخراجه للخطبة وإدخاله فيه » .

وكان تدعم الجدران الخارجية دعائم كبيرة ضخمة لدفع ما يمائل ما وراءها منها خارج الصحن . وظل صحن الجامع الذي سمي ببهو النارنج في عصر مسيحي ، محتفظاً بسلامته إلى حد كبير حتى هدمت مئذنته العربية عام ١٦١٨ عند بناء الجوسق المقدس . وكانت تنفتح في جدرانه الخارجية بالصحن ثلاثة أبواب واحد في امتداد محور بيت الصلاة يعرف اليوم باسم باب الغفران وبابان آخران في المجنبتين

يعلو مدخل باب الجنة بشرقيه وخلفه أسطوان تغطيه مجموعة من المقرنصات من نفس طراز قباب جامع مراكش . وتطل على الصحن بوائك من عقود من الآجر متجاورة منكسرة ويحيط بهذه العقود عقود أخرى دائرة من أرجل العقود الى رؤوسها الأمر الذي يكسب دعائمها الشكل الصليبي .

وما حفظ من الزخرفة قليل ومع ذلك فهو بالغ الأهمية في الكشف عن ميول الزخرفة الأندلسية المغربية في عهد الموحدين ، ويقتصر على نصين زخرفيين محفورين في الجص بالعقد الداخلي لباب الغفران وكذلك على العقد المطل على الصحن في امتداد هذا الباب ، بحافة أفقية مموه المقرنصات بالسقف الشرقي ، وزخارف عقد المدخل المؤدى الى صحن نوعها أشرطة مزررة مرسوم فيها مفصصات ومربعات عائمة على رؤوسها . وهي زخرفة مرتبطة الأصل لها نظائرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء ، أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من سعف النخيل الملساء التي تخلو من التسنين ، يطوقها خطوط محززة وأطر منها منحنى في منعطفات وملاحم في تنسيق وايقاع . وترسم في بعضها خطوط لولبية محززة وقد حفرت الزخرفة النخيلية على صفحتين مع قطعها عليها نوعاً من التباين القوى بين الظلمة والنور ، وقد سمى مؤرخو هذه الزخرفة باسم « الزخرفة الكثيفة »

وتشبه الى حد كبير زخرفة محراب جامع تورر متوسس وهو مسجد يندرج في سلك الفن الأندلسي ويعاصر المسجد الجامع باشبيلية اذ بني عام ١١٩٤ م .

والعقود المتقية التي تطل على الصحن ومجنباته متجاورة منكسرة تراوحها أخرى تتخذ نفس صورتها طبيعة في مرورها ، ولعل الطابق الأدنى للعقد الخارجي كان يتخذ صورته الحالية في حين كان الداخلي منه مغطى بزخرفة تتألف من حنايا صغيرة مقعرة ومحدبة تكاد ترتبطها

تحصيات تتخذ شكل حرف S في التوائها . وهي احدى خواص زخرفة الموحدين وهي ما أطلق عليه ماسيه وبرس اسم الشكل السعفي .

على جامع اشبيلية مجموعة من صور مستثنية وفيه ظهرت في مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاة من المسجد الجامع بقرطبة بعد أخذ من هذا المسجد الأخير مظهره الزخرفي كما ورث من جامع قرطبة أيضا عنصر صحنه بعقوده السبعة في أروقة مصلاته التي تحدد عقود النسيج مثلا من أربعة عقود في جامع الكتبية بمراكش وجامع تينمل . واقتبس من جامع قرطبة أيضا نظام عقوده وأسلوب زخارفه ونظم ثراء الزخرفي التغلب على جامع اشبيلية بجعل الطريقة ومن مسجد مراكش أشد وأعظم بعد كانت هذه المساجد بسيطة في زخرفها بتأثير مباشر من مذهب الموحدين في التقشف .

وكان أبو يعقوب قد عهد قبيل حملته الى شنترين بالبرتغال عام ١١٨٤ الى واليه باشبيلية وابنه أبو داود يلول بن جلداسن ببناء المسجد الجامع وصومعته (منارته) . ولكنه توفي أثناء عودته من غزوته ، ولحقه أبو داوود فمات بعد ذلك بشهور ، وتعطل بموتهما بناء الصومعة ، وما كاد خلفه أبو يوسف يعقوب يظفر بالبيعة حتى أمر والي اشبيلية الجديد بالاشراف على اتمام مشروع أبيه واكمال بناء صومعة تحوز في ارتفاعها صومعة جامع قرطبة التي كانت تعد وقتئذ أعظم مئذنة في المغرب والأندلس . وقام أحمد بن باسه عريف العرفاء ببناء الصومعة ولكن المنية عاجلته ، فخلفه علي الغماري سنة ١١٨٨ . ثم العريف الجديد على بناء الصومعة فتم بعد انتصار أبي يوسف يعقوب على جيوش قشتالة في موقعة الأرك في ١٠ يوليو سنة ١١٩٥ ، وارتفعت الصومعة في رشاقة مشرفة على فحص اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف ، ومعظم القرى والضياع والمجاشر . وعاد الحاضرة وقد استحق لقب المنصور وأمر بصنع التفاحات الأربعة المذهبة

بتلك الصومعة . ورتب في حضرته وركب بالسفود المذكور في أعلى قمة الصومعة ثم أزيلت عنها الأغشية التي كانت تغطيها فبهرت ببريقها وتلألئها عيون الحاضرين .

وظلت الصومعة محتفظة بسموقها ودقة زخرفتها وتناسق بنيانها بعد أن اعجبت المسلمين والمسيحيين على السواء ، فقد كانت تمثل للمسلمين رمزاً لعزهم ودوام حكمهم في هذه البلاد حتى زالت دولة الموحدين وتقلصت دولة الإسلام في الأندلس وتقدمت حركة الاسترداد المسيحية . فقد سقطت قرطبة عام ١٢٣٦ وحوصرت إشبيلية عام ١٢٤٦ ، وظلت تقاوم الحصار خلال عام ونصف حتى وهنت مقاومتها وبعد ذلك اضطر أولو الأمر فيها إلى إجراء مفاوضات مع الأعداء لتسليم مدينتهم ثم طلبوا منهم أن يترك للمسلمين الحق في هدم مسجدهم الجامع وتقويض صومعته . فأجابهم دون ألفونسو بجملته التي أصبحت في عداد الأمثال « سأقطع رقابكم جميعاً لو هدمتم حجراً واحداً منها » .

وهكذا خضع المسلمون للحكمة وامتثلوا صاغرين لأمره وسلموا مدينتهم الحبيبة بمسجدها الجامع وصومعتها . وسقطت إشبيلية في يد فرديناندو الثالث ملك قشتالة الذي أطلق عليه القديس لهذا السبب . وسرعان ما تحول المسجد الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا ، وحولت تجاهه حتى يكون صالحاً لتقيم شعائر المسيحية . وظل المسجد الأعظم على تلك الحال دون أن تلحق به تغييرات هامة في البناء ، ومع ذلك فقد أضيفت إليه عدة مصليات أهمها المصلى الملكي ، وتلاحقت عليه بعد ذلك أضرار جسيمة على أثر الزلازل فاضطر المجلس الكنسي بإشبيلية إلى اتخاذ قرار بهدمه لعدم صلاحيته وبناء كاتدرائية أسلوبها قوطي يتمشى وفق الأسلوب السائد في ذلك العصر . ووضع حجر الأساس في ١٤٠٢ وبدأت أعمال البناء من الجانب الغربي ولم يبق من مسجد

ابوحدس الأعظم الا عدة عقود تطل على صحنه من جهة الشمال والشرق كما أوضحنا ذلك من قبل .

أما الصومعة فقد ظلت في معظم حسنها التي تركها عليها المسلمون ولم تصب بأي تغيير في نظام نسبها سوى أنها لم تعد بعد تلك الصومعة التي ينطلق من أعلاها صوت المؤذن في الفضاء داعياً الى الصلاة ، بل تحولت الى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة ، ثم فقدت الى الأبد تفافيحها الأربعة على أثر زلزال حدث عام ١٣٥٥ . وفي سنة ١٤٩٤ زال الجزء الأعلى من الصومعة على أثر صاعقة وسقط جزء كبير منه في أوائل سنة ١٥٠٤ ، وعندئذ قام المهندس هرنان رويث بتنفيذ مشروع ببناء برج علوي عام ١٥٥٨ فتم سنة ١٥٦٨ ونصب في أعلى البناء تمثال من البرونز يرمز للمسيحية صنعه برتولومي موريل عام ١٥٦٧ نحت يدور مع الرياح يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار . ومن ثم أطلق عليه جيرالديو giraldillo أو دوارة الهواء وهو اسم مشتق من المصدر Girar أي يدور . ثم ما لبث أن حور هذا الاسم الى جيرالدا Giralda وأصبح يطلق منذ أوائل القرن الثامن عشر على البرج بأكمله ، ويبلغ الارتفاع الكلي للبرج ٩٣٫٢٥ م منها ٦٩٫٦٥ متراً ارتفاع الجزء الاسلامي منه .

ويكفي لاظهار روعة هذا الجزء الاسلامي أن يلمس الزائر بنفسه عمارته الصاعدة في ابداع ، وزخارفه المحفورة في الآجر كالمعينات والمورقة في تعادل واتزان مع رقة وبساطة تنطق بهذا التفصيل . واذا كنا نأسف اليوم لضياع الجسم العلوي من الصومعة فانما نحمد الظروف التي أتاحت بقاء الجزء الأدنى منها . ولولا أن هرنان رويث نظمها للنواقيس لكانت قد هدمت حتى أساسها كما حدث لكثير من الصوامع الاسلامية التي هدمها المسيحيون وأزالوها من الوجود .

لم يطرأ على الجيرالدا بعد اتخاذها هذا "الاسم أى تغيير ولكنها أصيبت بأضرار فادحة سببتها الزلازل والصواعق كزلزال عام ١٨١٩ أو صاعقة عام ١٨٨٤ مما سبب الحاجة معه الى اصلاحها وتولى ذلك المهندس أدولفو فرناندو كازانوفا . وهكذا وصلت الينا الجيرالدا وقد حفظت لنا ما تخلف من صومعة جامع الموحدين باشبيلية .

كانت الجيرالدا تتألف من طابقين الأول وهو الجزء الأعظم منها ويتميز بالإفريز الأفقى الذى تعلوه فتحات انوافيس ، والثانى برج صغير أضخم يعلو البرج الأدنى فى امتداد جوانبه الداخليه . وكانت تعلو هذا الطابق قبة مدورة مصمتة مفرهدة تتوجها سفود ركبت عليه تفافيح الأربعة التى تتضاءل فى الحجم كلما ارتفعت فتتسق تماماً مع أقسامه ومعجمه [illegible] وتنسيق مؤكدة رشاقة المئذنة وسموقها وتدعمها الجدران التصاعدى الذى يزيد قوة بالتقسيمات الثلاثية الرأسية بزخرفة المعينات . وتتألف هذه المعينات من ثلاثة شبكات تقوم كل منها على ثلاثة عقود . وليست هذه المعينات فى موقع ما الا امتداداً لهذه العقود فتتقاطع فيما بينها لتحدث فى تقاطعها هذه الشبكات . ويتفق مظهر البرج الخارجى مع مظهره الداخلى كما لو كان مرآة تعكس صورته .

وقاعدة الصومعة مربع طوله ١٣٫٦٥ متراً بداخله نواة مربعة الشكل طولها ٦٫٢٥ م . يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف من ٣٥ مقطعاً . وتعلوه قبوات متعارضة صغيرة متصلة ، خمسة منها فى كل مقطع . وتشغل النواة الداخلية للبرج سبعة غرف مربعة الشكل الواحدة فوق الأخرى . الخمسة السفلى منها مسقوفة بقبوات نصف كروية أما القبوتان العلويتان فمتعارضتان ، ويتراوح ارتفاع كل غرفة مابين ٦٫٣٠ متر ، ٤٫٩٠ م .

ويعد التنسيق الداخلى للصومعة من احكام لفن البناء ومعرفة دقيقة بأصول العمارة . وقد لعبت الصومعة دوراً هاماً فى فنون المغرب والأندلس بنشرها ذلك النوع من الزخرفة المتشابكة التى عرفت فى عصور الموحدين كما عرفت فيما بعد فى عصور بنى نصر بغرناطة وبنى مرين فى مراكش وفى بعض كنائس المدجنين . وهكذا كانت الجيرالدا مصدراً خصباً أثر فى كافة أنواع العمارة الاشبيلية فى العصر الاسلامى و المسيحى على السواء ، بحيث يصعب علينا أحياناً التفرقة بين بعض الآثار الاسلامية البحتة وغيرها من آثار المدجنين .

وتعتبر الجيرالدا بما عرف من مختلف احجامها سبقاً عن غيرها ما أكثر المتعصبين له ، فقد أثرتها عناصر أندلسية تولدت عنها فى قرطبة خاصة كخلافة الاموية وسرقسطة ومالقة و المرية وغيرها من حواضر ملوك الطوائف فهى تصور تغلو فى الزخرفة والاغراق فى تغطية مسطحاتها بصنوف الصناعات مع المبالغة فى الرقة . وفيها طابع روح الاعتدال و التناسق بخلاف ما يتصف به الفن المغربى من تقشف وبساطة .

الفصل الثانى

القصور

١ ــ القصور الأندلسية فى عصر الدولة الأمويه وعصر ملوك الطوائف

٢ ــ قصور الحمراء بغرناطة

(١)

القصور الأندلسية فى عصر الدولة الأموية

وعصر ملوك الطوائف

ما كاد المسلمون يوطدون أقدامهم فى الأندلس بعد الفتح ، ويخضعون هذه البلاد لسلطان خلافة الأموية بدمشق ـ حتى امتد فيهم الصراع القبلى الذى كان كامنا فى نفوسهم وأصبحت الأندلس فى عهد الولاة التابعين لخلافة دمشق مسرحا للفتنة والفوضى ومرتعـا خصبا للأهواء مدة ثلاث وأربعين سنة . وقد افتتح هذا العهد العصيب بمقتل الأمير عبد العزيز بن موسى ، وكان أبوه موسى بن نصير فاتح الأندلس قد استخلفه عليها بعد أن قفل الى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣ م) ، وانتهى بتغلب الأمير عبد الرحمن بن معاويه المروانى المعروف بعبد الرحمن الداخل على سرير الملك بقرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م) .

ثم بدأ عصر بنى أمية فى الأندلس ويعتبر امتدادا لعصرهم فى المشرق . ومؤسس هذه الأسرة فى الأندلس هو عبد الرحمن ابن معوية بن هشام الذى استطاع أن يفر الى المغرب الأقصى ، ويعبر الزقاق (١) الى الأندلس ، واستطاع بفضل ما أوتى من الهمة أن يؤسس ملكا بعد فنائه ، وقد قال عنه أبو جعفر المنصور عدوه اللدود : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفرد فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله وشيعه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مراقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك

لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستوى منها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لفتى كل الفتى لا يكذب مادحه (١) !! »

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ، ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقه في الأبنية الدينية والمدنية ، وجامع قرطبة شاهد صدق على هذه الحركة الكبرى في البناء والتشييد ، إذ يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بل العالمية في العصر الوسيط . ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسي المغربي ، وقد أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب ، وأثرت في الزخرفة المسيحية والإسلامية على حد سواء ، وأوحت قبابه القائمة على هياكل مبانيه من الضلوع المتقاطعة ابتكار القبوات القوطية ، التي انتشرت في العصر الأوربي الوسيط .

هذا هو العصر الأموي الذي نبت فيه الفن الإسلامي بالأندلس ، وما لبث أن ترعرع في العصور التالية حتى وصل إلى ذروة نضارته في عصر بني نصر ثم هاجر هذا الفن إلى المغرب بعد أن طرد من بلاده التي ولد فيها على أثر الاسترداد المسيحي ، وقدر له أن يقضي فيه البقية الباقية من حياته حتى نضب معينه ، وذبل عوده ، وقضى عليه بالفناء [٢] .

---

(١) المقري : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » تحقيق محيي

ولا نود أن نطيل الحديث عن هذا الفن ، وإنما قصدنا أن ندرس منه ناحية جديرة بالبحث هي القصور [illegible] الحصينة والبيوت للمسلمين في الأندلس في عهد بني أمية ، وفي عهد ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الأمويين ، ثم في عهد دولتي البربر المرابطين والموحدين ، وفي عهد بني نصر الذين ختم بهم الإسلام حكمه في الأندلس .

وكان الأمراء والخلفاء يشيدون القصور للحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يقطنون فيها [illegible] دور الإمارة ، على أنهم كانوا ينشدون الراحة في بعض الأحيان ، فكانوا يعمدون إلى بناء القصور للراحة واللهو بعيدا عن الحاضرة ، ليتمكنوا من الاستغراق في الترف ، والاستمتاع بحياة اللهو والنعيم التي لا تتاح لهم في مقر حكمهم بالحاضرة . وكانت هذه القصور [illegible] [illegible] وحاصته ، ومن منتزهات ومحال للوحش فسيحة ومسارح للطيور محصنة بالشباك وأسواق وحمامات وفنادق ودور للصناعة ومساجد وغير ذلك .

غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ، فما أسرع ما كانت تنتهب وتتلف على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث في قرطبة عندما تداعى سلطان الخلافة القرطبية ، فعم النهب والسلب ، وفي ذلك يقول ابن حيان [illegible] ٠٠٠ ٠٠٠ [illegible] هدم القصور ومحو المعمور ، وكان من [illegible] المؤم ، والالتحاق بشؤم [illegible] الأهل والفرع وتفكك السداد ، وتنقيل العدد — على نحو عظيم ، فبيدت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، ومحيت أعلامهم المنيعة ، فقدمه ابن السقاء مدبر قرطبة بجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة ، فاعتدى عليها أعظم آفة ، وباع آلاتها من المرمر ومثمن العمد ومصاريع الخشب [illegible] وصفائح الحديد

والرصاص بيع الادبار (١) » .

وكذلك كان أمر قصور الزهراء التي شرع الخليفة عبد الرحمن الناصر في بنائها عام ٣٢٥ هـ (٩٣٦م) . اذ هدمها البربر في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٠١ هجرية (٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، ودمروا دميتها ، ويروى ابن أبي زرع كيف تهدمت قصور الموحدين بمراكش بعد انقضاء سلطانهم (٢) .

ويغلب على الظن في أسباب تخريب هذه القصور أن الاسلام يستهجن اصطناع ما فيه معنى الأزلية على الأرض ، فالدوام لله وحده ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الاسلامي ، وكشف عن نزعة للألوهية . وكان رجال الدين يترصدون الملوك ، وينتقدون كل أعمالهم ولكن عبد الرحمن الناصر مضى في عمارة القصور عملا بقوله

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم

ملك محاه حوادث الأزمان ؟

ان البناء اذا تعاظم قدره

أضحى يدل على عظيم الشان (٣)

وكان يلقى من زجر القاضي منذر بن سعيد البلوطي وتأنيبه ، ما

---

(١) ابن بسام الشنتريني « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » القسم الأول ، المجلد الثاني ، القاهرة عام ١٩٤٢ ص ١١١ - ١١٢ .
(٢) ابن أبي زرع ، « روض القرطاس » ج ٢ ص ١١٠ .
(٣) نفح الطيب جزء ٢ ص ١١٠ .

مجلسه سكن ، وقد قال له يوما « متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ومكان الجزاء » . ومضى في ذم تشييد المباني والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل .

وكان يحذره فجاءة الموت ، ويدعوه إلى الزهد في هذه الدار الفانية، ويحضه على اعتزالها والرفض لها ، والندب الى الاعراض عنها ، والاقصار عن طلب اللذات ونهي النفس عن اتباع هواها . وكان الخليفة في كل مرة يضج بالبكاء ، ويندم على ما سلف له من فرطه (١) .

٤ – قصور بني أمية بقرطبة

ما كاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية يستقر بقرطبة ، ويثبت قدمه في الملك ، حتى عمد الى تجديد ما طمس لبني أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فبنى الجامع بقرطبة ، وبنى مساجد أخرى . كما أدار السور بقرطبة بعد أن هدمه السمح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس، واستعمل حجره في ترميم قنطرة قرطبة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ (٧١٩) .

وقد شيد بنو أمية قصر الدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيدوه بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه ، وحكوا به قصرهم بالمشرق . كما بنى الأمير عبد الرحمن الداخل منية الرصافة شمالي قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، فاتخذ بها قصرا حسنا ودحا جنانا واسعة ، ونقل اليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وسماه باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه . وما زال بعض آثار هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ – ١٠٧ .

وعندما ولي الأمير عبد الرحمن بن محمد محمد الامارة عام ٩١٢م تلقب بالخلافة عام ٩٣٢م لما تشتت أمر الخلافة بالمشرق ، وسيطرة الترك على بني العباس . ولعلمه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة (٩٢٩م) فتلقب بألقاب الخلافة ليحيي الخلافة [illegible] من عهده ، بعد استقام أمره . وبلغت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما بلغته حتى بغداد . فحوى من الثروة والثراء لم تسعه الأمم الأخرى . رأى أن يبني له قصراً يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميال تقريباً غرب قرطبة على سفح جبل العروس .

وقد أمدتنا المدونات التاريخية الحربية بمعلومات قيمة عن هذه المدينة الخلافية وعن الفترة القصيرة التي ازدهرت فيها . وعلم بها [illegible] ، ثم عن الأحداث التي أدت بها الى الزوال ، فتحدثت [illegible] في المهد ، وكانت ماتزال في مقتبل عمرها ، ويروي المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير ، ويعزون تسميتها هكذا الى جارية أغرم بها عبد الرحمن الناصر واسمها زهراء ، ويحسبون ذلك بوجود تمثالها على أحد أبواب المدينة . وللقارئ أن يطالع تلك القصة في كتب التاريخ (١) .

وحسبنا أن نذكر هنا أنه شيد بها قصوراً كثيرة ، منها ، قصر المؤنس ، وقصر الخلافة ، وقصر الزهراء ، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة ، وعمدها من الرخام والمرمر ، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهب والفسيفساء .

---

(١) انظر على الاخص كتاب « نفح الطيب » ج ٢ صفحات ٦٥ — ٦٨ ، ١٠٣ — ١٠٥ ، وابن خلكان في كتابه « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٢٩ — ٣٠ .

وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا المنطق ، غير أن ما أسفرت عنه الحفريات أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشفت عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت فى الرخام والنحاس والحجر فى الأندلس فى العصر الوسيط .

ولم يتم بناء مدينة الزهراء فى عهد عبد الرحمن الناصر فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده عام ٩٧٦ م ، وظلت الزهراء فى ازدهار حتى ظهرت مدينة الزاهرة فى الوجود ، وهى مدينة بناها المنصور بن أبى عامر سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨م) (١) غير بعيد من قرطبة ، فأصبحت منافسة للزهراء ... ... وأفل عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) فكان مؤذنا بالانهيار ، إذ هاجمتها جنود البربر فى ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ ، واقتحموها عنوة ، وتبع ذلك مذبحة دامية قضوا فيها على حامية المدينة ، وعاثوا فى الرجال والنساء والأطفال ونهبوا الدور والقصور ، وأوعز إليهم سليمان المستعين بإضرام النيران فى المدينة ، حتى أصبحت أثرا بعد عين !!

صارت الزهراء أكوام خرائب ، وتلال أطلال ، وكانت جدرانها

---

(١) بناها محمد بن أبى عامر على نهر قرطبة ، وتوسع فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسوارها ، فاتسعت المدينة وصارت كاملة بعد عامين . وفى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠م) انتقل إليها المنصور واتخذ فيها الدواوين وبنى كبار قواده ورجال حاشيته بها عظيم الدور وشاهق القصور وقامت بها الأسواق وكثرت الأرزاق . وعطل ابن أبى عامر قصر الخلافة بالزهراء ، وصيره بمعزل عن سلطته وسد باب قصره عليه وكان لابن أبى عامر بالزاهرة قصر رائع يعرف بالعامرية يفوق قصور الزهراء فى عظمته وجماله ، وخربت الزاهرة بعد وفاة المنصور وبنت كأمس الدابر وخلت منها النعوت المكتبة والمنابر وتلاشى أمرها وأصبحت قاعا صفصفا .

الخربة ما تزال قائمة في عهد الشريف الادريسي ، ولم يخطىء أحد الكتاب في تسميتها « رومى العربية » .

وقد توقفت عند روائع هذه المدينة بعد سقوطها المؤرخون والجغرافيون العرب والاسبان الذين بهرتهم روائعها الفنية . واجتذبت أكوام الخرائب والانقاض التي كانت تضم في أحشائها مخبأ عصور الزهراء اهتمام رجال الآثار في العصر الحديث بعد أن ظلت حتى مطلع القرن الماضي محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة لتزيين دور قرطبة وأشبيلية . ثم عهد المهندس الأثري ميلاسكيث بوسكو بإجراء أول حفائر رسمية بها . وكان أول ما أسفر عنه البحث هو الكشف عن الفاصل بين المدرج العلوي والأوسط ، كما أسفرت عن كشف كميات هائلة من الخزف ذي البريق المعدني وقطع كثيرة من الزجاج . ثم كشف عن آثار أحد تلك القصور ، وظن ميلاسكيث بوسكو أنه قصر الخلافة (١) على حين ثبت بعد أن ما اكتشفه لا يعدو أن يكون جزء من قصر الحكم المستنصر بدليل ما نقرؤه على بعض تيجان الأعمدة .

ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدي كبار رجال الآثار مثل دون فيليث هرننديث ودون رافائيل كاستخون . فأسفرت عن اكتشاف آثار قصر من قصور الناصر سنة ١٩٤٣ (١) ، وهي آثار غنية بزخارف في

Velazquez Bosco (R.). Excavaciones en Medina Azhara Madrid 1923.

(١) انظر كاستخون

Rafael Castejon · Excavaciones del plan nacional
en Medina Azhara (cordoba). Campana de 1943, Madrid 1945.
Nuevas excavaciones en Medina al - Zahara, El salon
de 'Abd er Rahman III, Al-Andlus, 1945, pp. 147 - 159.

الحجر والرخام . وقد نسبت هذه الآثار إلى عبد الرحمن الناصر لوجود اسمه منقوشا على تيجان عثرنا عليها . وما زالت الحفائر الأثرية جارية حتى وقتنا هذا . وما تزال دون شك هذه المدينة تتسع مدفونة الأثرية ومرممة تنتظر الكشف . فاستطاع أن نعيده إلى صورته الأولى كما نستطيع أن نكتشف جدرانه ومقاطعه الحجرية التي كانت مدفونة في الأطلال نعيد أن نجمعها فيما بينها مراعين في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها .

ويمكن أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثري أن قصور هذه المدينة نوعان :

الأول الدار التي تقوم على فناء مركزي هو صحن تتوزع حوله كل الغرف .

الآخر هو القصر الذي يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال في المساجد الأندلسية (١) . وقد اتبع هذا النوع معظم القصور الفارسية .

كما أسفر البحث الأثري عن كشف الموقع الذي كان يشغله جامع الزهراء . وأغلب أرضيات المجالس والقاعات التي تتألف منها القصور مكسوة بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار وقطع الآجر الحمراء في أشكال هندسية غاية في الروعة والجمال ، وتكشف تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات الحجرية عن فن رفيع في الحفر الغائر في

Elie Lambert Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord. Al-Andalus. Vol XIV. fasc 2, 1949. pp 273-291

الحجر والرخام . ويحو هذا الفن في أسلوبه نحو التجسيد الميومدنيه حتى يصل الحجر الى عمق كبير مما يؤدي الى اكساب الزخرفة نوعا من التباين الحاد بين الظل والضوء ، ومعظم التيجان من الطراز الكورنثي والطراز المركب ، وكانت قواعد الأعمدة من الرخام الناصع البياض .

القصور فى عصر ملوك الطوائف

انتثر سلك الخلافة الأموية فى ١٠١٠ م ، وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة فى جميع أنحاء الأندلس ، واستبد الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالبلاد ، وقسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض ، ثم استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم ، وعظم سلطانهم ، أمثال بنى عباد بإشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى جهور بقرطبة ، وبنى حبوس بغرناطة .

وكان طبيعياً ، وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة ، أن تلتمس العناصر الشعبية والعربية التى كانت ترجو بها مجالاً تنفس بها فى ظل هؤلاء الملوك ، وكان نتيجة لذلك أن تألقت فى عاصمة كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة جماعات فنية حتى قد اعتبر هذا العصر من أزهى عصور الفن الأندلسى بالرغم من التدهور السياسى الذى أدى إلى تصدع فى جسم دولة الإسلام بالأندلس وبضعف سلطان المسلمين فى هذه البلاد وزحف الاسترداد الأسبانى زحفاً حثيثاً على حين استغرق ملوك الطوائف فى الملذات ، وعكفوا على اللهو ، واستناموا لحياة الترف ومظاهر الرقة التى كانت تنعم بها الأندلس فى ذلك العهد ، وأدوا الجزيات للألفونسو السادس اتقاء لشره ورغبة فى خطب وده ومرضاته ، حتى ظهر يوسف بن تاشفين أمير المسلمين فى المغرب ، وتعلقت آمال الأندلس بنجدته بعد أن ضايقهم ألفونسو فى طلب الجزية . فعبر ابن تاشفين الزقاق إلى الأندلس والتقت جيوشه وجيوش قشتالة فى واقعة الزلاقة . فكانت هزيمة النصارى وبداية عصر المرابطين فى الأندلس .

وقد ولع ملوك الطوائف فى الترف والرقة للعيش ، وأقاموا القصور الشاهقة والآثار الحسنة الرائعة وقد ولع المؤرخون العرب فى وصفها ، ومن أهمها قصر ابن ذى النون فى طليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة وقصر القصبة بمالقة .

قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة :

شيده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون (فى ٤٤٥ هجرية ١٠٦٣م)، وتأنق فى اتقانه ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع وسطه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ، ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصل اليه ، ويوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب .

وقال ابن حيان عن ابن جابر فى وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرم « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأعزب عن بعد تخطى من معنى زخرفه الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه الى ما فوقه ، ازاره الرائع الدائر بأسه حيث دار (١) ، وهو متخذ من رخام المرمر الأبيض المسنون الزارية صفحاته بلماح فى صدق الملاسة وصفاء ملموس ، قد خرمت (٢) فى جثمانه صور البهائم ، والطير ذات الأثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أغصان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث ، كما تعلق بعضها بين ملاعب ومناعف ، ترنو لمن تأملها بألحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة اليه وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها متميزة من شكلها ، تكاد تفقد البصر

---

(١) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التى تغطى الجزء الأدنى فى الجدار .

(٢) يعنى الزخارف الحيوانية التى حفرت فى هذه الكسوة الرخامية حفرا غائرا عميقا من شأنه ابراز هذه الاشكال حتى تبدو كالتماثيل

عن التعلي الى ما فوقها ، قد عمل هذا الإزار (١) عما فوقه كتاب ، منقش عريض التقدير ، محرم محفور ، دائر بالمجلس الجص من داخله ، قد خطه المنقار (٣) أبين من خط التزوير ، قائم الحروف بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرسوم كله بأشعار حسن ، قد تخيرت من أماديح مخترعه المأمون .

وفوق هذا الكتاب المعمل في هذا المجلس بحور متطبعة من ارجاج الملون الملبس بالذهب الابريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار .

وأرض هذه البحار (٤) مدحوة من أوراق الذهب الابريز . مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأنفس تصوير وأبدع تقدير (٥) » . وأضاف قائلا :

« ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الابريز أحكم صياغة . تتخيل لمتأملها ، كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هون كنشيش القطر أو سحائب اللجين ، وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المدمع ، محفور من مدمع الرهر ، كبير الجرم ، غريب الشكل .

---

(١) اشتقت هذه الكلمة من الإزار وهو رداء يغطي الجزء الأسفل من الجسم من الوسط حتى منتصف الساقين ومنه فعل تأزر أي أحاط بحزام أو نحوه وما زالت هذه اللفظة تستعمل في اللغة الإسبانية بالمعنى الذي أشرنا اليه فهي كسوة من الرخام أو الزليج تغطي الأجزاء الدنيا من الجدران (Alizar)

(٢) إفريز أو طراز من الكتابة محيط بأعلى الجدار .

(٣) الآلة التي ينقش بها النقاش .

(٤) أفاريز أو طرار أرضيتها مزججة ومركبة بالذهب .

(٥) انظر ابن بسام : « الذخيرة »

مدبج النقش ، قد أبرزت من حسناته صور حيوان وأطيار وأشجار (١) ، وينحصر منه في شجرتين منه عاليتي الأصلين عريقتي الشكل ، محكمتي الصنعة ، قد عريت كل شجرة منهما وسط كل مدبج بأدق صنعة يخرق منهما الماء من المدمجين . فينصب من أعالي أغصانهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش الديمة ، فيحدث لخروجه صوت يشبه الموسيقى ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط لاندفاع ، ينسكب من أفواهها ، ويمثل أشخاص أطيارها وثمارها بالنسمة كالمارد لصلقيه ، يفقد حسنه الألحاظ الثاقبة ، ويبدع الأذهان الحادة كلية » .

هذا الوصف المعبر الذي ينطق بما كان عليه هذا القصر يحلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره ، كما يشير إلى الدور الذي صنعته المحرات في تجميل القصر ومحاسنه ، وقد اندثر هذا القصر ، ولا نعرف عن أمره شيئا يذكر . على أن بطليطلة اليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا في فحص نهر تاجه ، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذي شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذي النون .

وقد نسج المؤرخون الأساطير حول هذا القصر نسيجا من الفروسية والأساطير . وتروي هذه القصص أن أميرة مسلمة تدعى جاليانا كانت تعيش فيه ، وبعد مغامرات عجيبة الشأن انتهى بها الأمر إلى أن تتزوج الامبراطور شرلمان . وقد بقي من هذا القصر جزء مستطيل أقيم في طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين ، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة ، وتتخلل جدرانها فتحات .

والبناء على الطراز الطليطلي تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف

---

(١) يشبه هذا الحوض حوض مدينة الزاهرة الذي عثر عليه في اشبيلية ، وفيه هذه الزخرفة الحيوانية النفيسة نفسها .

الحجر ، أما القنوات مصمرصة ، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية شبيهة التحوير ، وأخرى مفصصة فى مداخل الغرف . أما الزخرف فمن نوع المدجن ، وتحمل رنوك أسرة قرمس مما يفسر الى حد كبير صحة هذه الرواية (١) .

ب — قصر الجعفرية بسرقسطة .

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة ؛ وهم البناة ، ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة سقوط طليطلة عام ١٠٨٥ م واستشهد عام ١١٠٩ م بمحاصرة تسعة ، وكانت سرقسطة فى عهده ، جنة الدنيا ، ومنتهى المجد ، الوصف ، وموقف السرور والقصف (٢) » .

وقصر الجعفرية من بناء أبى جعفر أحمد المقتدر بالله عام (١٠٤٧ — ١٠٨١ م) كما نشب ذلك نقش بأحد تيجان أعمدته وقد سمى بالجعفرية نسبة الى كنيته « أبى جعفر » . وقد كان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » وفيه يقول

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكي خلافكما
كانت لدى كفاية الطلب

Marquès de Lozoya Historia del arte Hispanico t. I, p. 237

(١) « نفح الطيب » ج ٢ ص ١٧٠ .

وما كادت سرقسطة تقع في أيدي النصارى حتى تحول القصر إلى دير ثم إلى حصن استقر فيه ملوك أرغون . ثم ألحقت به عدة مقصورات [illegible] . ثم أصبحت له في عهد الملكين الكاثوليكيين فرديناندو وإيزابيلا قاعة العرش الرائعة عام ١٤٩٢ م ، غير أنه ما لبث أن اتخذ منه محكمة التفتيش سجونها الرهيبة ، ثم دعمه [illegible] بمعقل وحفر من حوله خندقا .

وفي عهد إيزابيلا الثانية تحول إلى معسكر سنة ١٨٦٦ م ، فهدمت المقصورة الملكية التي شيدها بدرو الرابع ، وجردت معظم زخارفه الإسلامية الرائعة .

[illegible] مع عض بربري يدي به يحيين من [illegible] (٢) . ومع بمتحف من [illegible] الهمجي سوى القصر الذي يؤلف برحرحه — مع ما يحتويه متحف سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة وعقود جصية رائعة كل ما بقي من بني هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه . ولكن لدينا تصميما حرفيا يصور هذا القصر عام ١٧٥٧ م . وقد يستطيع الباحثون أن يقيموا على هذا التصميم دراسة علمية هامة .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابره ، ويتألف من سور مستطيل (٨٠ × ٦٨م) يدعمه تسعة عشر برجا أسطوانيا

Gomez Moreno . Ars Hispaniae. tomo III p. 221 and & El

الشكل (١) عدا برج الكريم فقد كان مربع الشكل ، بداخله عقود محورة . وفي وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية على حين كانت تطل على جانبيه القصرين محمولين من الطرف كل منهما تتألف من قاعة في الوسط وغرفتين جانبيتين . كما هو الحال في قصور بني نصر بغرناطة وقصور المدجنين (٢) . ولكن بقي هذا القصر من المنظر .

وكان في جنبات برج الكريم قاعة كبيرة يعلوها مجلس الذهب الذي كان يعتز به المعتمد ، ويتسع في جانبيه عرضين أحداهما يشغلها مسجد الذي ما زال قائما حتى وقتنا هذا وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل بجنوب بالصحن . وكان يقابله في الجهة الأخرى قاعة تسمى بقاعة الرخام نسبة إلى كثرة أعمدتها الرخامية . وقد كشفت بائكة من العقود الإسلامية كانت تتصل بالصحن المطل بالإضافة إلى أثر هدم جزء من مقصورة سان خورخي التي في جنوب قاعة الرخام . وتتألف هذه البائكة من ثلاث عقود كلها غاية في التعقيد الزخرفي وعقودها طبقتان ، احداهما فوق الأخرى . والسفلى منها من عقود مفصصة متقاطعة ، وفوقها عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات . ومنها نشهد اتجاه الفن الأندلسي في ذلك إلى الإسراف في التعقيد والغلو في حشد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعة التي تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة .

أما المصلى فبابه مدخل ، أما داخله مثمن الشكل ، وأصله مربع

---

(١) تتشابه هذا القصر في تخطيطه الأبراج المدجنة والقصور الإسلامية المبنية بالصحراء بما في سوريا والعراق كقصر المشتى والأخيضر ، في حين تتشابه مقصوراته المعمارية الداخلية وزخارفه والعناصر المعمارية والزخرفية للفن الخلافي القرطبي .

(٢) هم أهل الذمة أي المسلمون الخاضعون للنصارى .

طول ضلعه ٥ر٤٦ من المتر تحول الى مثمن بأن أقيمت في أركانه أنصاف خوذات ، ويشغل المحراب الركن الجنوبي الشرقي ، وتعلوه قبيبة مفصصة مضلعة الشكل ، ومدخله على شكل عقد متجاور يشبه عقد جامع قرطبة ، يحيط به إطار مستطيل وفي سمته قوقعة ، أما سجفته فمحشوة بالزخرفة وطليت بالجص ، ويزين الجدران أسفله الأخرى [illegible] من النوع الذي نحتفظ منه الخطوط والمنحنيات (١) ، ويحيط به إفريز بارز يحدد الشكل نفسه ، وتحمل هذه العقود أعمدة متصلة بالجدران ، ويجري بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفي تعلوه شبكة زخرفية . تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة ، ويرجح الأستاذ توري أن أسقف المتحف بسرقسطة أن هذا المسجد كانت تعلوه قبة قائمة على ضلوع متقاطعة على نحو ما نرى في قبة المسجد الجامع بقرطبة .

وليس هذا المسجد — على حد قول أحد مؤرخي الفن الاسبان — بيت للصلاة ، « وانما هو بيت للفن يضم أروع ما أبدع الفن الأندلسي (٢) » ، أما العقود المحفوظة اليوم في متحفي مدريد وسرقسطة مكانا يزينان القاعة الرئيسية ، وكانت هذه العقود فيما مضى أربعة موزعة على الجدران الأربعة للقاعة ، وفيها يستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوطها اذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة .

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة

---

(١) انظر Gomez Moreno, Op. Cit. p. 326

(٢) J. Galiay, El Castillo de la Aljoferia. 1906, p. 20

المرمرية التي تبين لنا مقدار التطور الذي بلغه الفن الأندلسي بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الإسلام . ونلمس في هذه النقوش حرية زائدة ، التي جعلت هذه النقوش تصبح من الرسم وأضفت عليها عوامل الأسلوب الذي يتمثل في علاه رأس مقبض . وتمثل هذه التيجان زخارف ذو مهد ورقة الأكنتس ، وتوزعت بدقة على حروف على طبقتين حتى إذا غطى بوزن هذه الزخارف .

ولاتزال في متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر يحتفظ بـ مكانها معه ، ومنها من ألواح رخامية وشمسيات خشبية في ذات على شيء عظيم مما وصل إليه الفن الإسلامي في الأندلس من تعقيد لا تستطيع يعجز عنه الوصف ، ونعتقد لاميست في قصر الجعفرية هو الأصل الذي حاكاه عرفاء الموحدين في اشبيلية وبنو نصر في غرناطة ففي هذه الأبنية نجد صنع الخشب ، ونسمع ينقمص بزخارف المحصنة بعضه الأحجار كذلك أثر عصر الجعفرية في عمائر الموحدين وعمائر بني نصر ، من حيث تصميم الصحن المستطيل والجناح المحيطة به (١) .

قصر بني حمود بقصبة مالقة :

كان علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من سلالة ادريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة بفاس قد أجازا مع البربر من العدوة إلى الأندلس ، وآزرهما البربر ، فملكا قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦م) ، وقتلا سليمان المستعين ، وقام بالأمر من بعده علي بن حمود الذي تلقب بالناصر ، ودام له الملك عامين إلى أن قتله صقالبته سنة ١٠١٨ م ، فوليه كانة أخوه القاسم وتلقب بالمأمون ، ونازعه الأمر يحيى بن علي

---

(1) Ricardo del Arco La Aljafería de Zaragoza. Revista Española, N. 5, 1926, p. 166

بن حمود ، وكان حاكما على سبتة ، فأبحر الى الأندلس سنة ١٠١٩ م وحل مالقة وكان أخوه ادريس واليا عليها منذ عهد أبيه ، فبعث أخاه الى سبتة ، وزحف يحيى الى قرطبة ، فاستولى عليها سنة ١٠٢١ م ولقب بالمعتلى ، وأخذ يوسع رقعة مملكته ، فاستولى على جزيرة الخضراء ، ثم خضع له أهل شريش سنة ١٠٢٥ م وظل قائما بالحكم حتى هلك عام ١٠٣٧ م ، وخلفه أخوه ادريس بن على وضم اليه رندة والمرية ، ولكنه هلك عام ١٠٣٩ م وخلفه ابنه يحيى ، ولكنه فر الى قمارش .

ثم توالت الأحداث على هذا النحو بين أبناء عمومته ، وأخذ المعتضد بن عباد ملك اشبيلية ، وقد انتهز فرصة النزاع بين بني حمود ، أنصاره في المدينة ، فتخلف أركش ومورور ورندة سنة ١٠٥٣ م ، ثم سقطت في يده جزيرة الخضراء سنة ١٠٥٥ م واستولى ابنه المعتمد على جيان سنة ١٠٧٤ م ، وما لبثت دولة بني حمود أن انقرضت على أيدي المرابطين .

وقد شغلت الحروب والمنافسات والفتن الداخلية أفراد هذه الأسرة عن العمارة والتشييد ، ويبدو أن يحيى بن على هو الذي قام ببناء هذا القصر بقصبة مالقة ، ولم يبق من هذا القصر الذي أضيف اليه في عصر بني نصر سوى قاعة يبلغ طولها ٧ر٥٠ من المتر ، وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهي جنوبا بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التي تكسو أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية .

وعندما حدث الحفر في قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ م لم يكن في الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجميل الذي يرجع الى القرن الحادى عشر ، ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود شديدة التجاور ،

مكسوة سقوفها بزخارف رائعة . ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه في عهد بني نصر كما يبدو من أسلوب تيجان وتوزيع الأعمدة . وتتصل هذه البائكة على صحن شأنها في ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة . وإلى يمين عرضها بناء مربع طول ضلعه ٥٠ر٣ من المتر ويقوم في كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوها على النحو الذي نراه في عقود زيادة الحكم بجامع قرطبة . وهذه العقود جصية صماء لأن البائكة نفسها مكان يدور بجدرانها إطار من الزخرفة الجصية لم يبق منه إلا أجزاء ملتصقة بالجدران .

وعقود المدخل تتألف من سنجات مزخرفة وأخرى عارية من الزخارف بالتناوب . كما هو الحال في عقود جامع قرطبة بزيادة الحكم . أما زخارف عقود المدخل وعقود الشرفة فجصية متعددة الألوان . تمتد منها تموجات ، وتظهر بينها مراوح نخيلية طويلة من شأنها أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر . وفي بعض هذه العقود توجد مورقة في امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التي تذكر ببيت قرطبة ومعهد الزخارف قصر الجعفرية .

عصور اشبيلية في العصر الاسلامي

تحتفظ مدينة اشبيلية Hispalis (أو شبيلية) منذ أن عمرها الرومان بعصر واحد متين أسوارها ووسع عمرانها تجاه نهر بيطي الذي عرف في العصر الاسلامي بالوادي الكبير أو نهر الأعظم ، وأعظم مدن الأندلس لخصوبته . وكان قيصر سورها وأمرها بتحصينها متقسمين مرتفعين في وسطها . وجعلها أم قواعد الاندلس (١) . وصمدت شبيلية بعد سقوط حواضر العصر الروماني وحقبة طويلة من عصر القوط الغربيين . فقد كانت حاضرة القوط ومقر ملوكهم الى أن نقل ليوفيجلدو العاصمة القوطية الى طليطلة في سنة ٥٦٧ م ، وتعرضت أسوارها المنيعة لهجماته في سنة ٥٨٣ (٢) . ومع ذلك فقد ظلت اشبيلية لم تنقص من مكانتها التي كانت متبوأها ، وبقي فيها « شرف الروم وعلمهم وديهم ورياستهم في دنياهم » (٣) .

ووضع انتصار طارق بن زياد على جيوش القوط في وادي لكه في ٦ شوال سنة ٩٢ هـ (٢٥ يوليو ٧١١ م) نهاية لحكم القوط ، ثم زحف الى شذونة فافتتحها عنوة ومضى بعدها الى مدور وعطف على قرمونة، ثم انصرف الى اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، وكان هدفه التالي مدينة استجة التي أطبق عليها من كل جانب حتى دخلها صلحا ، ومن هناك سير عسكر لافتتاح قرطبة في حين واصل زحفه نحو طليطلة العاصمة .

---

(١) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق أ. ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩ .

(٢) Juan Mata de carriazo. las Murallas de sevilla. en «Archivo Hispaliense» No 48 - 49, p. 21, 22.

(٣) أخبار مجموعة في فتح الاندلس ، تحقيق لافونتي القنطرة ، مدريد ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ١٦ .

وفي العام التالي جاز موسى بن نصير الى الاندلس في ١٨ الفا من العرب ، وتمكن من افتتاح اشبيلية بعد أن حاصرها أشهرا (١) ، وكانت آنذاك « أعظم مدائن الاندلس شأنا وخطبا ، وأعجبها مبانى وآثارا » (٢) ، ولعل ذلك كان من جملة الاسباب التي دفعته الى اختيارها عاصمة للاندلس ، فلملاصقتها للبحر وموقعها لاسيما وهي على البحر المحيط عند مصب الوادي الكبير ، وارتفاعها في مستوى على ضفتي النهر والنهر مسيطر على الاندلس بحكومته الشرقية والجنوبية الغربية ، وسهولة اتصالها بسواحل العدوة من بلاد المغرب ، غير أن اشبيلية لم تبق طويلا بهذا التفوق ، اذا انتقلت الحاضرة منها الى قرطبة بعد أربع سنوات فقط من رحيل موسى بن نصير الى المشرق ، وتم ذلك على يد ايوب بن حبيب اللخمي في بدء العام الذي لقي فيه عبد العزيز بن موسى مصرعه (سنة ٩٧ هـ / ٧١٦م) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ازدهرت اشبيلية في عصر الولاة واستقرت بها أسرات عربية مضرية وعلى الاخص يمنية ، فمن المضرية بنو [illegible] من أعقاب عبد الملك بن قطن الفهري (٣) وبنو الطفيل من عبس من غطفان وكانت منازلهم بقرية فرشانة من الشرف (٤) ، وبنو عوف من مرة من [illegible] من ذبيان (٥) ، وبنو عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه ، وذكر ابن الاثير أنها « من أعظم مدائن الاندلس مبانى وأعمرها آثارا » ، الكامل في التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ٤ ص ١٤ .

(٣) المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٤ ص ١٣ .

(٤) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

الغافقي بمريانة الغافقيين قرب اشبيلية على الوادي الكبير (١) . ونزلته من اليمنية أسراب أكثر عددا تركت بصماتها واضحة في عدد من المواضع والقرى المحيطة باشبيلية مثل مرية مقرانة (٢)، التي تذكرت اسمها بموضع من نفس الجهة مدونة بظاهرية حصره له ، وليس من المستبعد أن يكون هذا الاسم قد أطلق على موضع نزلته جذام فمثل بطون التي استقرت في نواحي اشبيلية على غرار بعض المواضع التي نزلتها بطون بعينها مثل قلعة حولان (los Gazules Alcala de) وقلعة يحصب المعروفة أيضا بقلعة بني سعيد (وتعرف اليوم باسم Alcala la Real) ، وإن كان الباحث الأثري الأستاذ كولانتس دي تيران Collantes de Teran يعتقد أن المقطع الأخير من مقارنة Macarena وهو يضاف عادة الى اسم علم للدلالة على صفة مثل Juliana التي تعني عقارا يملكه شخص يدعى Julius وعلى مثالها Macarena التي تعني قرية تنتسب الى شخص يدعى ، ويعتقد كولانتس أن Macarena كانت موضعا أو قرية تقع على المحجة العظمى يقوم فيها برج للحراسة على نمط القرى التي كانت تتبع اقليم شعلبة (٣) . ومن بين أسماء القبائل اليمنية التي استقرت باشبيلية نذكر بنو الحضر بن مالك بن زيد من كهلان بن سبأ (٤) ، وبنو الصبب من جذام (٥) ، وبنو ثوابة بن عدى وبنو

---

(١) نفسه ، ص ٣٤٩ .

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٤٠ ويذكر ياقوت أنها حصن بلبلة (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مقرابة) .

Collantes de Teran, La Torre y la puerta de Macarena en «Archivo Hispalense No 43 - 44, Sevilla, 1950 p 202

(٣) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ ص ٣٤٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٢٦

عاد من نجم (١) ، وبنو حدون الحضرمية (٢) . كذلك استقرت بإشبيلية طائفة كبيرة من المولدين نخص بالذكر منهم بنو انجلينو Angelino وبنو شبرقة Sabarico وبنو الجريج Moroc (٣) .

ولم يلبث الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية أن وجد صداه في الأندلس في عصر الولاة وصحب استقرار العرب بإشبيلية والاضطرابات هذه الفتنة خلال فترة من تاريخها . وأثر ذلك موضوح في عمرانها . ولكن تمام دولة الأموية في الأندلس في سنة ١٣٨ هـ وضع حداً لهذه الفوضى . ولم تزعزع استقرار الامارة الأموية في قرطبة سياسة التي كانت تتمتع بها إشبيلية في ظل بني أمية . فقد ازدهرت هذه المدينة اقتصاديا وعمرانيا ، وعلى الأخص في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ، ٨٢١ - ٨٥٢م) أول من أسبغ على الأندلس عمل على تحصين الأندلس بما شيده من قصور وحصون وأسوار وما أنشأه من مدن وما أحدثه من نظم ادارية ومؤسسات حكم . ومن أبرز أعماله الانشائية المسجد الجامع بإشبيلية الذي تولى انشاءه قاضي إشبيلية عمر بن عدبس في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ / ٨٣٠م) (٤) . وولى عبد الرحمن الأوسط برجم النقض كذلك في إعداده

---

(١) نفس المصدر ص ٤٣٢ .

(٢) نفسه ص ٤٦٠ .

(٣) ابن حيان ، قطعة من المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشرها الأب ملشور أنطونية ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٧٤ ، وراجع كذلك
Levi - Provencal,
l'Espagne musulmane au xe siecle Paris 1932, p 19. Histoire de l'Espagne musulmane t III Paris, 1953 p 18

(٤) طالع النقش التذكاري لانشاء هذا الجامع في Ocanan Jimenez (M.) وقارت
inscripcion fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas de Sevilla al-Andalus vol XII 1947, fasc 1 pp. 145 151 Levi - provencal. Inscriptions arabes d'Espagne, 2 Vols, Paris 1931

انشاء دار الصناعة القوطية باشبيلية بعد غزو النورمان على أشبيلية في سنة ٢٢٩هـ (١) ٨٤٤م . وفي انشاء سور مدينة اشبيلية كذلك ٢ .

وفي عهد الأمير محمد [illegible] محمد [illegible] الاستقلال.

ولقد [illegible] الاستاذ [illegible] في [illegible] سعيد [illegible] عبد الرحمن بن الحكم [illegible] الامر [illegible] على [illegible] بن [illegible] شبيلية في سنة ربع عشرة [illegible] عبد [illegible] ، [illegible] ١٨٧٥ ، ١٩١١ ، [illegible] في سنة ١٩٢١ ، [illegible] في اسم [illegible] عمر بن [illegible] ذكره في الروايات العربية ، [illegible] العربية من [illegible] بخلو من الخط [illegible] بالكتابات القوطية القديمة ، الامر الذي [illegible] الى قراءة الاسم هكذا [illegible] حكم ابراهيم بن حجاج [illegible] ، تحقيق [illegible] ، ص ٨٥) في حين [illegible] ابن عذارى في [illegible] ٢٨٨ هـ [illegible] عبد الرحمن [illegible] ٢٨٨ [illegible] ٣٠١ هـ (٢ ص ١٢٩) ، [illegible] في ص ١٤٨ اسم ابراهيم بن حجاج [illegible] وفاته عام ٢٩٨ .

[illegible] عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت .

٢ ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ، مدريد ١٨٦٨ ص ٦٥ ، ويذكر ابن القوطية ان الوزراء اشاروا عليه ببنيان سور اشبيلية [illegible] لذلك عبد الله بن سنان رجل من الموالي الشاميين ، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم وهو ولد ثم استقدمه [illegible] ، ثم حج [illegible] الحج [illegible] هذه الحركة [illegible] بنيان السور باشبيلية واسمه على ابوابها . » ويذكر الحميري ان سور اشبيلية من بناء الامام عبد الرحمن بن الحكم ، [illegible] المحسوس [illegible] بالحجر [illegible] » (الحميري ، ص ٢ [illegible]) كذلك [illegible] بن هشام القرشي [illegible] الى هذا السور الذي امر عبد الرحمن الاوسط ببنائه [illegible] على [illegible] من عبد الملك بن حبيب » (ارجع الى الملحق في كتاب المقتبس في اخبار بلد الاندلس لابن حيان، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٤٤).

وخرجت عن عنق الامارة الاموية بقرطبة وذلك بعد أن تغلب عليها ابو اسحق ابراهيم بن حجاج اللخمي (٢٨٦ — ٢٩٨) ، أحد رؤساء اشبيلية وزعمائها من بيت بني حجاج وكان من أشهر البيوتات العربية في هذه المدينة . فحمى الاموال وجمع الرجال ورقى في درج الجلال (١) ، وكان رفيع القدر بعيد الهمة حسن الذكر ، متشبها بأمراء قرطبة في اتخاذ آلات السلطنة وأبهتها وأتباعه . وكان يقلد أمراء قرطبة (٢) فيتخذ حشما جندا كما يفعل الامراء ورتب لهم الارزاق فكمل في جملته ٥٠٠ فارس (٣) . وكانت له شخصية قاضي يفصل في الخصومات ويقوم بالاحكام ، وصاحب مدينة يقيم الحدود ، كما كانت له شخصية طراز يطرز فيها على سمته كما يفعل الامير الاموي (٤) وبالاضافة الى هذا كله استقدم الشعراء والعلماء من الاندلس وخارجها فقد مدحه شاعر قرطبة الاكبر أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٥) كما قصده الشاعر القرطبي محمد بن يحيى القلفاط (٦) ، ووفد عليه أبو محمد العذري من الحجاز فأكرم مثواه ورفع منزلته (٧) . وذكروا أنه سمع بجارية بغدادية تدعى قمر ، فبذل في ابتياعها من بغداد أموالا طائلة الى أن استقرت بدار مملكته اشبيلية ، وكانت بارعة الجمال ،

---

(١) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٤ .

(٢) يذكر ابن الخطيب انه كان يضاهي الملوك ، وان حاله حال الملوك مصانعا وانعاما (المصدر السابق ص ٢٥) .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ٣٧٦ — ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ طبعة ليفي بروفنسال وكولان ، ص ١٢٧ .

(٥) ابن الابار ، المصدر السابق ص ٣٧٦ — ابن عذاري ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٧ — ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ١١٨

(٧) ابن حيان ، المقتبس ، نشر انطونية ص ١٣١ ، ابن عذاري ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

فصيحة اللسان ، عارفة باللغة وضروب الألحان (١) ويذكر المقري بأنها « جمعت أدباً وظرفاً ، ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر مفصل أدبها » (٢) .

واستمر بنو حجاج يحكمون اشبيلية بعد وفاة ابراهيم بن حجاج في ٢٩٨ هـ في شخص ولده عبد الرحمن (٢٩٨ — ٣٠١ هـ) ثم أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج (٣٠١ هـ) الى أن عهد الامير عبد الرحمن بن محمد بسط الامارة بقرطبة ، ونجح في لم شتات الاندلس وجمع ما انفرط من عقدها في عهود أسلافه ، فاستسلم له أحمد بن مسلمة بن حجاج بعد أن حاصرته قواته بقيادة قاسم بن وليد الكلبي صاحب الشرطة وحمد بن ابراهيم بن حجاج شهورا من سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) واستعمل عليها الامير عبد الرحمن عمه سعيد بن المنذر القرشي المعروف بابن السليم ، سنة ٣٢٦ ، ويذكر الحميري انه هدم سورها وألحق أعاليه بأسافله ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة وحصنه بسور رفيع وأبراج منيعة » (٣) وظل ابن السليم يتولاها الى أن استقدمه الامير الى قرطبة ووليها من بعده مطيس بن أصبغ (٤) .

ثم انتثر سلك الخلافة الاموية بقرطبة في عام ٤٢٢ هـ (١٠٣٠م) وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة في جميع أنحاء الاندلس

---

(١) ابن عذاري ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ ، المقري ، نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٧ .

(٢) المقري ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٠ ، ٢١ وقارن ذلك بابن حيان ، المقتبس الجزء الخامس ، نشره شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ، ص ٨٠ ، وابن عذاري ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٤ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٦٤ ؛

عرفت بدويلات الطوائف ، فتغلب الامراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بالبلاد ، وتغلب بعضهم على بعض ، استقل بأمر هذه البلاد حيث استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، فصارت اشبيلية دولة بني عباد أكبر دويلات الطوائف ، وهم الذين عملوا على جمع شتات أهل الاندلس ولم شعثهم وتنظيم عصبة أندلسية قوامها العناصر العربية والمولدة والصقلبية ، عرف أصحابها بالجماعة ، كان من أهم أهدافها مناهضة الطائفة البربرية (١) . ولم يمض عهد طويل حتى كانت مملكة بني عباد قد اتسعت اتساعا كبيرا على حساب أمراء البربر والعرب المتميزين في الجنوب والجنوب الغربي من شبه جزيرة الاندلس ، وهم بنو برزال بقرمونة ، وبنو يفرن برندة ، وبنو دمر بمورور ، وبنو خزرون بأركش ، وبنو يحيى بلبلة ، وبنو البكري بولبة ، وبنو جهور بقرطبة ، وبنى طيفور بمرتلة ، وبنى طاهر بمرسية .

وشهدت اشبيلية في عصر بني عباد ازدهارا لم تشهده من قبل ، لا في عصر الرومان ولا في عهود القوط ، وبقيت منارا لأمصار الأندلس حتى غدت أعظم مدن الاندلس بعد أن تخلت لها قرطبة عن الرئاسة ، ويعبر ياقوت عن ذلك بقوله « وبها كان بنو عباد ، ولمقامهم بها خربت قرطبة » (٢) . وكان المعتمد بن عباد أندى ملوك الاندلس راحة ، ولمقامهم بها خربت قرطبة » (٣) . وكان المعتمد بن عباد أندى ملوك الاندلس راحة ، وأرحبهم ساحة وأعظمهم رمادا ، وأرفعهم عمادا . وبذلك كانت اشبيلية في زمنه مؤرة الرحال ، وقبلة الآمال ، ومركز الشعراء ، ومجتمع الادباء ، وفيها كان شعراؤه يعرضون بقصائدهم

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١١٦ . وراجع : السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ص ١٥١ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اشبيلية .

(٣) الحلل الموشية ، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ص ٩١ - ٩٧ . وراجع ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٢١٩ .

الرقيقة عن حدة الترف والرخاء التي نعمت بها اشبيلية في عهده . كان منشؤه يعمرون منشآتهم ابنية موروثة الامجاد ومسمة انحدر من عن الازدهار العمراني الذي واكب النهضة الحضرية في مملكته ، ولكن لم يتح لانشطته أن يعمر طويلا في عهد بني عباد ، اذ سرعان ما اسقط المرابطون عروش الطوائف ، وضموا الاندلس الى دولتهم في المغرب . ولم ينس المرابطون رغم جفوتهم وخشونتهم العسكرية ، وفي زحمة مشاغلهم الحربية واستغراقهم في الجهاد أن يعمروا اشبيلية بسور من الملاط يسع منطقة تشمل أرضها العربية كرمص مقرانه يمنع عنها هجمات الارغونيين والقشتاليين ، خاصة بعد الغزوة الحربية التي قام بها الفونسو الأول المحارب ملك أرغون في سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) واكتسح فيها الى الاندلس حتى غرناطة (١) .

الا أن عصر الذهبي في تاريخ اشبيلية لم يبدأ حقا الا بدخول الموحدين في الاندلس ، بعد اتخاذ خلفاء الموحدين حاضرة لهم في

---

(١) عن النشاط المعماري للموحدين في اشبيلية راجع : عبد الملك بن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤ — ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، تحقيق امبروسيو هويثي ميراندا ومحمد بن تاويت ، تطوان ١٩٦٢ — ابن أبي زرع ، كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الجزء الثاني طبعة تورنبرغ أوبسالة ١٨٤٣ .

Henri Terrasse, L'art Hispano mauresque, Paris 1932.
Henri Terrasse, Sanctuaires et Forteresses Almohades, Paris 1932
L. Torres Balbas, Ars Hispaniae, Vol IV, Madrid

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الاندلس ، مجموعة اقرأ ١٩٥٨ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ : العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

الأندلس ، فاستردت عظمتها ، وبلغت في عهودهم ذروة توسعها العمراني . وعمرت بالأسواق والمدارس والقصور والمساجد (٣) . فأبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي حرص على أن يخص حاضرة دولته في الأندلس بمنشآت عديدة ، فشهدت حركة التمصير والتعمير ازدهارا في عهد أبناء هذه الأسرة الموحدية العمري . ونالت إشبيلية على عهده منشآت عمرانية والمنتزهات والمنيات ، وأبو يوسف يعقوب المنصور كان مقيما في حاضرته ومعظم تحصيناتها سنة بعد انتصاره على جيوش قشتالة في موقعة الأرك (١٠ يوليو ١١٩٥ م) . وظلت إشبيلية تحظى برعاية الموحدين جميعا بعد حين الى أن ضعفت دولة الموحدين في أعقاب هزيمة العقاب وسقطت قواعد الأندلس التي كانت تابعة لهم ، ومنها إشبيلية ، ثم دخلتها جيوش قشتالة في ٢٣ ديسمبر ١٢٤٨ بعد حصار دام مايقرب من ١٧ شهرا .

كانت إشبيلية منذ منتصف القرن الحادي عشر وحتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي من أعظم مدن العالم ، وقد أقر الأجانب المسلمون والمسيحيون على سواء بتفوقها ومكانتها الرفيعة التي كانت تتبوأها في هذه الفترة . فقد أسهب مؤرخو العرب في وصف روائع إشبيلية وما كانت تنفرد به دون غيرها من حواضر الأندلس ، وكانت على حد قول بعضهم عروس بلاد الأندلس ومعقلها « مدينة الأدب واللهو والطرب . وهي على ضفة النهر الكبير عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، بها نهر المدينة وبحر السفن والوادي العظيم (١) » ، وكانت إشبيلية وفقا لما أورده الإدريسي « مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، وأسواق كثيرة وبيع وشراء ، وأهلها مياسير ، وجل تجاراتهم بالزيت يتجهز به الى أقصى المشرق والمغارب برا وبحرا ... » (٢) .

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٩٣ .

٢ الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن ١٩٦٨ ، ص ١٧٨ .

ومدحها ياقوت الحموي بقوله « مدينة كبيرة عظيمة ، وليس بالأندلس اليوم (أي في عصره) أعظم منها ، تسمى حمص أيضاً ، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره » (١) . ويصفها ابن سعيد المغربي في عصر الموحدين الذي عاصر نكبتها في أيدي الإسبانيين (٢) ويسهب الشقندي في وصف عظمتها ومحاسن منتزهاتها فيقول : « من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني ، وتزيين الخارج والداخل . وتمكن التمصر . ونعمة هنيئة فقد سمعت عن بعضها ويهتم أصحابها بها . وتكون دورها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة . كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك ... » وعن علمائها يصف قائلاً « وأما علماؤها في كل صنف رفيع أو وضيع جداً فهم أكثر من أن يعدوا . وأشهر من أن يذكروا . وأما ما فيها من الشعراء والوشاحين والزجالين فلو قسموا على بر العدوة ضاق بهم ، ولكن يشبون في أصلها ورمدهم » . ويختتم وصفه لمزايا إشبيلية ومحاسنها معبراً عن عظمتها وسمو مكانتها بقوله « ومن جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلا وقصدي به الإشارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلاد من ذلك ، ولكن جعلت إشبيلية ، جعل الله حظها أم قراها ، ومركز فخرها وعلاها ، فهي أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها » (٣) . ويذكر ابن بسام أنها « على قدم الدهر كانت قاعدة هذا الجانب الغربي من الجزيرة وقرارة الرياسة ومركز الدول المتداولة ... » (٤) .

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة اشبيلية .

(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ، ٢٠٠ .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، مجلس أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس قسم ٢ مجلد ١ ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١١ .

وكما امتدحها المسلمون في مصنفاتهم وبالغوا في ذكر فضائلها وسجل محاسنها ، حظيت باعجاب المسيحيين ، فأسرفوا في ابراز روعتها ، وأسرفوا في مدح محاسنها ، وأغرقوا في وصف مدى عظمتها في العصر ، فهذا ريكاردودي بن جريش يقرنها بروما والقسطنطينية ويعدها أكثر مدن العالم عمرانا (١) ، وهذا بيلودي لسنور دي ثويس مونتيروس يؤكد أنه لم تكن تضاهيها — لعظمة عمائرها ورحمتها — أي مدينة في العالم باستثناء روما العظمى (٢) . وعندما يشير ديبجو أورتيث دي ثونييجا الى سقوط قرطبة في يد فرديناد الثالث ملك قشتالة يعتبرها أعظم مدن العالم بعد رومة والقسطنطينية وشمالها (٣) .

وهكذا كانت اشبيلية في نظر المسلمين والمسيحيين على سواء من أحسن مدن العالم وأجملها ، وقد مدحها كثيرون من أعلام الكتاب الاسلاميه أمثال العذري (٤) وابن غالب (٥) ، وصاحب مباهج الفكر (٦) وابن مطلح (٧) والشقندي وغيرهم كما مدحها أيضا جستوشو (٨) وورود

---

(١) Italia Sacra, to III, Apud. Repartimiento de Sevilla, estudios y edicion preparada por Julio gonzalez, t 1 Madrid 1951 p.

(٢) Pablo de Espinosa de los Monteros. Antiguedades y grandeza de Sevilla, p. 22.

(٣) Zuniga (Diego Ortiz de) Anales Eclesiasticas y seculares, t. I, Hadrid 1796, p. 131

(٤) العذري ، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ص ٥ .

(٥) ابن غالب الاندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الانفس نشرها الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٣ .

(٦) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٥١ و وهذا النص يذكر أنها « من أحسن مدن الدنيا » .

(٧) يسمى ابن مطلح اشبيلية « عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف وفي عنقها سمط النهر الاعظم » . المقري ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٨) Gestoso, Sevilla monumental y artistica, t I, pp. 15. 16

نحو كارو (٢) ولكنها لم تلق من التمجيد والتفخيم مثل ما مدحها بـه
الملك ألفونسو العاشر في تاريخه العام لاسبانيا حيث يصفها دائما
بالمدينة النبيلة (٣) .

هذه المدينة العظيمة التي أجمع المؤرخون على تفوقها على مدن الأندلس بل العالم ، وأسهبوا في ذكر محاسنها وإبراز مفاتنها تجاوزت شهرتها الآفاق لكثرة عمرانها ومغانيها ، وروعة قصورها وتأنق مبانيها ، ومن أكثر أسماء القصور التي سجلها المعتمد بن عباد في شعره الذي ضمنه ذكرياته وأحزانه ، وما أبدع ما ردده منها ابن زيدون الوزير في بعض قصائده . وقد رأيت أن أقدم في الصفحات التالية دراسة شاملة تاريخية وأثرية لقصور أشبيلية في العصر الاسلامي ، راعيت فيها الترتيب الزمني مع الالتزام بنوعيه الأثري والترميمي .

أولا — قصر الإمارة

أ — قصر الإمارة الأول :

قبل أن يرحل موسى بن نصير الى المشرق اختار مدينة اشبيلية مقرا للامارة ، وعهد الى ابنه عبد العزيز بولاية الاندلس ، فاتخذ عبد العزيز مسكنه في قسم من كنيسة ربينة Santa Rufina حيث أقام تجاهها مسجدا عرف بمسجد ربينة(٣) كان يشرف على مرج اشبيلية ، وفيه قتل عبد العزيز في سنة ٩٧ هـ ، ويذكر ابن القوطية أن آثار دمائه كانت ماتزال واضحة داخل هذا المسجد حتى عهد قريب من عصر ابن القوطية

---

2) Caro (Todrigo) · Antiguedades y principado de la ilustrisima ciudad de sevilla, Sevilla, 1934.

3) Cronica General de Espana. Alfonson X, ed. Menendez Pidal, pp. 768 - 769.

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١١ .

(القرن الرابع الهجري) . ومن المعتقد ان كنيسة سانت رفينة أو ربينة المذكورة التي اتخذها عبد العزيز بن موسى دارا للامارة كانت تقع غربي من المسجد المعروف بجامع عمر بن عدبس .

ويبدو ان عمال اشبيلية من قبل امراء قرطبة كانوا يقيمون في قصر الامارة الذي كان يطلق عليه اسم القصبة . ولدينا ما يشير الى وجود هذه القصبة منذ غزوة النورمان الاولى لاشبيلية في سنة ٢٢٩هـ ، فعندما تمكنت القوات الاسلامية التي وجهها الأمير عبد الرحمن الاوسط الى اشبيلية من رد النورمان على أعقابهم . ودخل وزراء الامير اشبيلية ، لقوا عاملها محصورا في قصبتها » (٢) . والظاهر ان القصبة المذكورة كانت تشغل موضعا قريبا من الطرف الجنوبي الشرقي من اشبيلية الرومانية غير بعيد من الموضع الذي كان يقوم فيه جامع بن عدبس بدليل انه عندما اشتعلت نار الفتنة في اشبيلية في عهد الامير عبد الله في سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩م) اتخذ أمية بن عبد الغافر عامله على اشبيلية من القصر حصنا يتحصن فيه من بني خلدون وبني حجاج » (٣) . فقتطع بداخل اشبيلية حوزة ، واخرج سور القصر ومد من ركنه القبلي سورا طوله مائتي ذراع نحو الشرق ، كما مد سوره من جهة الشمال مائتي ذراع أخرى نحو الغرب ، وأدخل بذلك المسجد الجامع داخل نطاق سور ، محولا قصر الامارة الى قصبة ، بحيث أصبح بابها المعروف بباب حمدة يفتح الى مقبرة الفخاريين (٤) . ونستدل من حوادث اشبيلية في هذه السنة ان القصر كان يقع الى الشمال من مسجد

---

(١) ابن القوطيه ، تاريخ الاندلس ، ص ١١ .
(٢) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٦٤ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق انطونيه مشور ، ص ٧٧ ، وراجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ [illegible]
(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧

الطراكة (١) ، وانه كان قريبا من جامع ابن عدبس ، وانه كان مزودا بروضة دفن فيها هشام بن عبد الرحمن الاوسط أحد أولاده (٢) ، كما نستدل من حوادث التي اقترنت باسترجاع الخليفة عبد الرحمن الناصر لاشبيليه في سنة ٣٠١هـ أن هذا القصر كان يضم مجلسا يعرف بالاخيضر (٣) .

أما جامع ابن عدبس المذكور فقد تحول بعد سقوط اشبيلية في يد فرناندو الثالث في سنة ١٢٤٨ الى كنيسة سان سلفادور ، ثم هدم المسجد برمته في سنة ١٦٧١ وأقيمت مكانه الكنيسة الحالية التي تم بناؤها في سنة ١٧١٢ م . اما المئذنة فقد تهدم جزؤها العلوي عقب زلزال سنة ١٣٥٦ ، فأقيم مكانه طابق النواقيس ، ولم يتبق من المئذنة الاسلامية سوى القسم الأدنى حتى ارتفاع ٩,٥٠ مترا (٤) . وتقع آثار هذا الجامع حاليا في حومة قريبة من منتصف شارع سيرميس احد الشوارع

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٧٩

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ص ٧٩ واسم الاخيضر يطلق ايضا على قصر او حصن أقيم في العصر العباسي الاول ويرجع تاريخ بنائه الى منتصف القرن الثاني للهجرة (على محمد مهدي ، الاخيضر ، بغداد ١٩٦٩ ص ٧١) . ومن المعروف أن أمراء بني أمية اطلقوا على مجالس قصورهم أسماء قصور عباسية اقيمت في العراق من ذلك قصر التاج الذي ورد ذكره في جملة مجالس قصر الامارة بقرطبة ويذكرنا بقصر التاج العباسي الذي اقامه الخليفة المعتضد في بغداد ، وكذلك قصر المعشوق بقرطبة يذكرنا بمعشوق سامراء ، وكذلك قصر البديع وقصر المختار بقرطبة وهما اسمان لقصرين من قصور العباسيين في سامراء (راجع السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ١ ص ١٩١) ويتضح أن استخدام الامويين لاسماء قصور عباسية انما يعكس التأثيرات العراقية في البناء الحضاري الاندلسي .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٤٠٢ .

الرئيسية باشبيلية الحديثة ، وهو شارع مازال يحتفظ فى تخطيطه بنفس تخطيط المحجة العظمى القديمة .

أما القصر فلم يبق منه أى أثر . فقد ضاعت معالمه بسبب التطور العمرانى الحديث الذى قضى على معظم الابنية الاسلاميه فى اشبيلية ، ولكن من السهل تحديد موقعه بالقرب من كنيسة سان إسيدور الحالية .

ب — قصر الامارة الثانى المعروف بالقصر القديم :

ذكر ابن عذارى المراكشى أن الحاجب بدر بن **أحمد** تمكن من دخول اشبيلية بعسكر الامير عبد الرحمن بن محمد دون قتال (١) فى ١٩ جمادى الاولى سنة ٣٠١ هـ (٢) (٩١٣م) ، فى حين يؤكد ابن حيان أن ذلك تم يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الاولى من نفس السنة (٣) ، فأقام بها خمسة عشر يوما كاملا ثم خرج قافلا عنها الى قرطبة يوم الاثنين لاحدى عشر ليلة بقيت من جمادى الاولى أى فى يوم ١٩ جمادى الاولى (٤) وهو التاريخ الذى يضعه ابن عذارى لدخوله اشبيلية .

وبينما يشير ابن عذارى الى نكوث محمد بن ابراهيم بن حجاج لطاعة الامير بعد أن استسلم له (أى للامير) أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، وتحيزه له ، ثم امتناعه بقرطبه ، وقيامه بمهاجمة اشبيلية بعد ذلك مستهزءا بهدم بعض سورها ، وتصدى عاملها له وارغامه له على

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ص ٧٩ ، ويؤيد الحميرى فى الروض المعطار هذا التاريخ وص ٢٠ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٨٠ ، ٨١

الانسحاب الى قرمونة (١) ، (بمعنى أن سور اشبيلية كان مهدما في معظم اجزائه وانه طمع فيها لذلك لولا أن عامل شذونة تمكن من ايقاع هزيمة به وارغمه على الرجوع) يؤكد ابن حيان في المقتبس ان سعيد بن المنذر القرشي الذي ولاه عبد الرحمن الناصر عاملا على كورة شذونة وصل اليها بعد ستة أيام من دخول الحاجب بدر بن أحمد واستقرار باشبيلية . وان هذا العامل دعا الحاجب الى هدم سور مدينة اشبيلية فكره بعد ذلك ، ونفر عنه وجوه من معه من رجال السلطان وأهل ولاية اشبيلية ، فاختلفوا عليه . وقال فريق منهم هي مدينة ساحلية لايؤمن عليها من قبل البحر ، وبقاء سورها أحزم مع أنه من بنيان عبد الرحمن بن الحكم . فنجح سعيد بن المنذر في هدمه ، وقطع على صواب نحه المدمة ، وأن ذلك أحوط على السلطان وأحسم لطمع من يبغي نعمه فساعده الحاجب بدر على ذلك ، وجمعت الايدى على هدم أسوارها فسويت بالارض ، وعكس عوامها رجاءهم ويئسوا من الفرقة » (٢) . ثم يتابع ابن حيان عرضه لموقف محمد بن ابراهيم من حجاج صاحب قرمونة بعد ان تنكب على الناصر ، فيذكر أنه تحرك في قواته الى اشبيلية متهزا عورتها أى خلوها من الاسوار ، فهجم على مدينة اشبيلية صبح يوم ٣ من رجب سنة ٣٠١هـ « وهي مهدمة أسوارها عورة » فحاربه سعيد بن المنذر القرشي عامل الامير عبد الرحمن الناصر داخل أرماضها قسما من النهار ، وأرغمه على العودة خائبا من حيث أتى (٣) .

---

(١) في ذلك يقول ابن عذارى : « خرج محمد بن حجاج من قرمونة مجيشا الى موصل اشبيلية عند الصباح ، فهجم عليها وكان بعض سورها مهدما فطمع فيها ، فخرج اليه العامل عليها من قبل السلطان فهزمه عنها فرجع الى قرمونة » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١) ومع ذلك ففي موضع آخر يذكر ابن عذارى أن الحاجب بدر هدم أسوارها (ص ١٦٤) .

(٢) ابن حيان ، المصدر السابق ص ٨٠ .

(٣) نفسه ص ٨٢

ولانستبعد أن يكون سعيد بن المنذر ، عامل اشبيلية ، قد هدم في جملة ما هدمه من أسوار باشبيلية ، قصر الامارة المجاور لجامع عمر بن عديس ، وهو نفس القصر الذي كان أمية بن عبد الغافر الوالي السابق ، قد حوله الى قصبة منيعة ليحتمي بداخلها من هجمات بني خلدون وبني حجاج ، اكتفاء بقصر الامارة الجديد الذي اعتزم المشروع في بنائه في موقع استراتيجي هام من اشبيلية أكثر قربا من الوادي من الحصن الشرقي لاشبيلية . ونستدل على ذلك من تسمية دار الامارة الجديدة التي يسميها كل من البكري والحميري « بالقصر القديم » (١) قياسا الى قصر الامارة الاعظم الذي أسسه بعد ذلك المعتضد بن عباد وأضاف فيه ابنه المعتمد قصوره المشهورة المبارك والثريا والزاهي .

ومن المرجح أن اقدام سعيد بن المنذر على هدم القصبة القديمة قد حدث بعد شروعه في بناء القصر القديم . وقد يكون هذا الهدم قد تم فيما بعد في عصر لاحق . ومن المعروف أن عبد الرحمن الناصر استقدم سعيد بن المنذر من اشبيلية وولى عليها فطيس بن اصبغ في شعبان من سنة ٣٠١هـ (٢) ، أي بعد شهرين ونصف من ولايته عليها فاذا كانت المصادر العربية تنسب القصر القديم وتحصينه بسور صخري مربع وابراج منيعة لسعيد بن المنذر ، فان هذه النسبة لايمكن ان تلحق به دون مبررات ، ونعتقد لذلك أن سعيد بن المنذر شرع بالعمل في بناء القصر القديم وتزويده بالسور الصخري والابراج المنيعة خلال هذه المدة القصيرة ، وأن عامل اشبيلية الجديد — فطيس بن أصبغ — هو الذي استكمل مباني القصر المذكور مدة ولايته على اشبيلية التي استمرت فيما يظهر ١٤ سنة (من شعبان سنة ٣٠١ هـ الى شوال سنة ٣١٥ الذي يسجل تاريخ توليه الوزارة) (٣) .

---

(١) البكري : جغرافية الاندلس واوروبا ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١١٤ .

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس نشر شالميتا ، ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

ويبدو ان الموقع الذى اختاره سعيد بن المنذر لانشاء القصر القديم أو دار الامارة المستحدثة كان فى الاصل حصنا بطلة أقيم فى عهد عبد الرحمن الاوسط فى خطة الانشاءات التى أمر عبد الله بن سنان بتشييدها بعد غزوة النورمان فى سنة ٢٢٩ هـ ، فقد كانت العادة ان تحمى مدن الاندلس بحصون تقع فى مواقع استراتيجية منها بهدف تمكن الدفاع عنها حتى بعد سقوط المدن فى أيدى العدو ، والموقع الذى تخيره سعيد بن المنذر مشروعه من المواقع الهامة التى يمكن ان تتحكم فى الدفاع عن المدينة فى أوقات الخطر أو الحصار ، واليه امتد العمران الاشبيلى فى عصر الطوائف والعصور التالية ، ويؤيد اعتقادى فى أن الموقع الذى اختير لاقامة مشروع ابن المنذر كان فى الاصل حصنا أو قلعة ان المهندس الأثرى دون خوسيه ارتشدث تمكن من تحديد قطاع صغير من سور من الحجر يشبه فى بنيته الى حد كبير نظام البناء فى قصبة مسردة وذلك داخل مجموعة القصر الحالى شرقى القصر الذى تم انشاؤه زمن الملك القشتالى دون بلدو الاول (١) ، وقد سماه المهندس المذكور باسم السور الشامى (El Muro siriaco) اعتقادا منه بأنه البقية الباقية من السور الذى أنشأه عبد الله بن سنان الشامى زمن الامير عبد الرحمن الاوسط أو أنه له علاقة بقصر الامارة الاول الذى تحول فيما بعد الى قصبة والواقع كما سبق أن أوضحت ـ ان القصبة المذكورة كانت تقع قريبا من مسجد عمر بن عدبس ، وعلى هذا الاساس لا يمكن أن يرجع هذا القطاع من السور الى القصبة المذكورة ، كما ان سور اشبيلية الاسلامى الاول لم يكن يطوى الا المركز العمرانى القديم ولم يكن يصل بأى حال من الاحوال الى منطقة القصر الحالى ، ولهذا السبب نستبعد ان يكون هذا القطاع المذكور جزءا من سور عبد الله بن سنان ، ونعتقد بالتالى فى احد أمرين الاول اما أن يكون بقية من

---

3) Jose Guerrero Lovillo, al - Qasr al - Mubarak, Sevilla, 1974, p. 99.

قلعة كانت قد اقيمت في عصر عبد الرحمن الاوسط في هذا الموضع خارج اشبيلية للدفاع لتحرس عنها أو أن يكون بها علاقة بأحد قصور بني عباد ، ومن المعروف أن بني عباد اعادوا استخدام حجر سور منحرف الذي يرجع الى عهد عبد الرحمن الاوسط في بناء قصورهم .

ويذهب صديقي الباحث الاثري الاستاذ جريرو لوبيو ونحن نؤيده في ذلك — الى أن جزءاً من السور القديم لدى شارع سعد بن مدر في منه . وتم بناؤه في عهد خلفه ، مدبران عتمه اليوم ، ويمثل هذا الجزء في التحصينات المحيطة ببهو العقود الحالي لقطعة على ميدان النصر (١) . ومما يؤكد هذا الرأي الباب الذي تم كشفه حديثاً (٢) وكان يفتح في الجدار الغربي من بهو العقود المذكور ، ثم غلقت فتحته في عصر لاحق . ويتخذ الباب المذكور شكل عقد حدوة فرس تجاوز كثيراً نصف الدائرة ، بنتيجة مركزي على نسق العقود التي

---

(١) José Querrero Lovillo, op. cit. p. 90.

(٢) كانت الحوانيت السبلجية تتوزع على جانبي الشارع الضيق المواجه للسور العربي من بهو العقود ويسمى حاليا شارع دون جواكين روميرو ميروس ، بحيث تحجب رؤية مدخل السور المذكور ، الى أن أمر العالم الاثري الاشبيلي الصديق المرحوم دون جواكين روميرو ميروس مدير قصر اشبيلية بعد ما يقرب من ٢٥ عاماً بازالة هذه الحوانيت المساندة للسور ، فتكشف بذلك سبيل السور المذكور ، وامكن مشاهدة هذا الباب المسدود . وللأسف لم يتقدم أي باحث اثري بعد ذلك الحين على دراسة هذا الكشف الهام ولقد نبهت بعد سنوات عديدة وبالذات بعد سنة ١٩٧٥ — عندما زرت اشبيلية لالقاء سلسلة من المحاضرات في جامعتها بدعوة منها — الى اهمية هذا الكشف ، وعزمت آنذاك على الكتابة عنه ، وواتتني الفرصة في سنة ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٠ لذلك عندما اشتغلت مديرا للمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ومستشارا ثانيا للسفارة المصرية معاودت الزيارة عدة مرات ، وكتبت في ١٩٧٩ بحثا عن تحقيق أسماء قصور بني عباد باشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون ، بمجلة أوراق التي يصدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة، العدد الثاني ، وتحدثت فيه اشارة الى هذا الاكتشاف (ص ٢٢ — ٣٢)

التي شهدناها في الأبواب الخارجية لجامع قرطبة ، ويرجع تاريخ معظمه الى عصر الامارة . وتطوق العقد المذكور طرة مربعة الشكل (أو مربعية على حد التسمية الاسبانية l'arbea ، تبرز مع وجه نتوء عن العقد وطلته . ويملأ بطن هذا العقد عقد مجمص لسطح نصف دائري تتعاقب فيه سنجات صحمة وأخرى رقيعة ؛ يقصم طيه العقد تاج و عتب أفقي مسطح . وممتدا العقد مرتكزا على جداريه مثمنين على حدبديه من نفس مادة السور ، ومن الجدير بالملاحظة أن مد ملف لدى في السور الذي يفتح فيه الباب المقصود تنتظم على أسس آدبه وشنادي وهو نظام بنائي أقدم عهدا من النظام الشائع في عصر الطوائف ، ويتفق مع طريقة البناء التي نطالعها في جامع قرطبة ، وصلبه عند الباب أكثر انحصا في مستوى من وجه العقد . والعقد بوجه عام متشابه كثيرا مع عقد باب سان ستيبن المعروف بباب الامير (ويرجع تاريخه الى عصر الامير محمد وكان يشرع الى المقصورة القديمة) ، وعقد باب سان استيبن المعروف بباب الوزراء . وينحصر الخلاف في العتب في بابي قرطبة المذكورين بمد تحت طبلة العقد في حين يتوسط في اشبيلية الطبلة . واعتقد أن هذا الباب الاشبيلي بفتحته المغلقة ، والاسوار المتصلة به ، هو البقية الباقية من قصر الامارة القديم الذي أقيم في بداية عهد الامير عبد الرحمن بن محمد الملقب فيما بعد بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وواضح من فتحة العقد ، وطريقة تسنيجه المركزي ، وشكل طرته المحيطة بقوسه ، وطريقة توزيع مداميك البناء ، أن الاسلوب المتبع في البنية أقدم عهدا من أسلوب البناء في مدينة الزهراء ، بل وفي عقود صومعة جامع قرطبة ، وفي نفس الوقت أكثر تطورا من عقود عصر الامارة ، وأعتقد انها مرحلة انتقالية بين عصر الامارة وعصر الخلافة ، الامر الذي يتفق تاريخيا مع الفترة التي أقيم فيها القصر القديم باشبيلية في عصر عبد الرحمن الناصر .

ويمتد السور يمين هذا الباب ويساره ، وتكتنفه أبراج مربعة

الشكل . تتميز أجزاؤها السفلى بنفس أسلوب البناء فى جدران الباب المذكور (الحجر والاشكال المرققة) كما تتسم بقدمها وضخامة أحجام حجارها وصلابتها ، فقد تصل كتلة الحجر أحيانا الى ٧٥ سم طولا و٥٠ سم ارتفاعا . وتتصف هذه الكتل الضخمة فى كثير من الاحيان مع كتل متوزعة عرضيا متبعة النظام المعروف بأدية وشناوى . وتظهر الضخامة والصلابة أكثر ما تظهر فى هذه الابراج وما يتصل بها من بدنات السور تتفق تماما مع الوصف الذى يسجله كل من البكرى والحميرى لبناء هذا السور اذ ورد فى وصفهما ما يلى « وحصنه (أى حصن القصر) بسور صخر رفيع وابراج منيعة » .

ج ـ القصر المستحدث فى عهد المعتضد بالله أبى عمر وعباد بن اسماعيل (٤٤٣ ـ ٤٦١هـ) :

يغلب على الظن أن قصر الامارة القديم (ونعنى به قصر سعيد بن المنذر) ظل فى عصر الفتنة التى أعقبت سقوط الخلافة بقرطبة مقر القاسم بن حمود وولده محمد (١) ، فلما تمكن أهل اشبيلية من اغلاق أبواب مدينتهم فى وجه حمود (٢) ، وحاصروا ابنه محمد بن القاسم القصر ، الى أن رضى منهم بتسليم ابنه مع من كان معه من الحرس ، ورحل بهم الى شريش (٣) ، اتفقوا على تقديم قاضيهم أبى القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى (٤) يرجعون اليه أمرهم ، وتجمع

---

(١) العذرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ عصر الطوائف ، تحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ ص ١٣٤ ، ١٩٦ .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٧ .

(٤) وجده عطاف بن نعيم دخل بالاندلس فى طالعة بلج بن بشر القشيرى ، واستقر مع بنيه فى قرية يومين من اقليم طشانة من أرض اشبيلية (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٥) .

به كلمتهم ، بكياسته وحكمته وبعد مرمى همته ، وسعة صدره وحسن تدبيره . وبكنه مهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد فأشرك معه في الأمر أعوانه وشركاءه كي لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا الا بمشورتهم ، هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، ومحمد بن الألهاني ، وأبو الأصبع عيسى بن حجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني (١) ، وقيل أن شركاءه ثلاثة هم . الزبيدي وابن عبد وعبد الله بن مريم وأنهم كانوا يحكمون في القصر طوال أسبوع ، ويعقدون بكتب تحت ثلاثة خواتم ويتصرفون في مهمة اليوم . (٢) وواضح أن القاضي أبا القاسم محمد أمد أشركهم معه في أمور اشبيلية ليخوض بهم الأمور ويستميل العامة الى أن يضرب ضربته وينفرد بالامارة مثلما في ذلك رسم بن يعيش صاحب طليطلة (٣) . وقد أثبت ابو القاسم محمد بن عباد براعته في ادارة شؤون اشبيلية ، ولم يلبث أن استقل بالأمر دون شركائه وأسقط جماعتهم في سنة ٤١٤هـ (١٢٠٣م) ثم رأى أن يستند في امارته على سند يدعمه في نظر العامة ، ويمكن له نفوذه بين ملوك الطوائف . فاستقدم رجلا يشبه الخليفة هشام المؤيد ، زعم أنه اتخذ اشبيلية بدلا من قرطبة مقرا لخلافته ، واحتفل بقدومه ، وأنزله بقصر اشبيلية في سنة ٤٢٦ هـ (١٣٠٤م) ، ومع ذلك فلم تسلم اشبيلية من اعتداء قام به كل من زهير العامري وحبوس بن ماكسن

---

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٩٤ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢١٥ . ويذكر ابن عذاري في موضع آخر انهم كانوا جماعة منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي ، وبنو مريم ، وبنو العربي وغيرهم من نظرائهم .

(٣) نفسه ، ص ١٩٦ ـــ ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٣٧ .

(٤) استولى على أمور طليطلة عند قيام الفتنة نفر من رؤسائها منهم ابن مسرة ومحمد بن يعيش المذكور وسعيد بن شنظير ويعيش بن محمد بن يعيش الذي انفرد في نهاية الأمر بالسلطان (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ٢ ص ٣٧ هامش ٥ للدكتور حسين مؤنس).

الصنهاجي الذين هاجما اشبيلية في ذي القعدة سنة ٤٢٧هـ وأحرقوا طريانة (١) .

وهكذا ظل قصر الامارة الذي بناه سعيد بن لندر مقرا للقاضي ابن عباد الذي استقدم شبيه هشام المؤيد سواء من قلعة رباح في (٢) رواية أو من قرية من قرى اشبيلية حيث كان يؤذن في مسجدها ويعمره ويتقوت من العمل في الحلفاء ، في رواية أخرى (٣) ، واسكنه ابن عباد معه في القصر (٤) ، اذ ليس لدينا من النصوص ما يؤكد قيام هذا القاضي ببناء قصر جديد للامارة قبل انفراده بالامارة ولكن من المعتقد ان ابنه أبا عمرو عباد المعتضد بالله (٤٣٣ — ٤٦١ هـ) هو الذي انشأ قصرا جديدا للامارة لعله دار الامارة المعتضدية (٥) ليتخذ مقرا له (٦) ، في حين ترك قصره القديم لشبيه هشام الذي توفي ويستدل على انشاء هذا القصر الجديد المستحدث من وصف البكري (ت ٤٨٧) للقصر الاموي بالقديم ومعنى ذلك وجود قصرين احدهما عرف بالقصر القديم

---

(١) ابن عذاري ، ج ٣ ص ١٩١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢١٥ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق د. احسان عباس ج ٥ ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٩ ، ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، طبعة بيروت ص ١٥٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

(٥) كان المعتضد بالله عباد رغم استبداده وسطوته وكثرة جرائمه السياسية التي سجلها عهده « لم يصرف عن الهمم العلية والرتب الملوكية ، فابتنى القصور السامية ، واعمر العمارات المطلة ، واقتنى الاعلاق النفيسه » (ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢٠٥ — ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٦) وفي قصر المعتضد هذا دفن ابنه المعتمد في مغنى تربة جده القاضي محمد بن اسماعيل (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٥٣ ونستنتج من ذلك ان هذا القصر كان يضم روضة أو مقبرة لاصحاب القصر وآلهم ، على نحو ما كان معروفا في قصر الخلافة بقرطبة ، وروضة الحمراء بغرناطة .

وهو القصر الذي ابتناه ابن المنذر والثاني القصر المستحدث الذي تمس به من أسماه المعتمد ولم يفصح عنه البكري وإن كان قوله يحمل ضمنا أنه كان قائما في زمنه . وأعتقد أن هذا القصر العبادي المستحدث هو نفس « دار الامارة » التي أشار إليها ابن عبد الواحد المراكشي في معرض حديثه عن حيل المعتمد مثله في التجسس على أعدائه (١) . ولعله نفس القصر الذي سجن فيه ولده اسماعيل في سنة ٤٤٩ هـ ثم قتله عنده (٢) . وربما يكون هذا القصر العبادي هو نفس « القصر المكرم » الذي جمع ذو الوزارتين أبو بكر بن القصيرة في إحدى مدحاته مع المعتمد بن عباد في اليوم الذي خرج فيه ابن عمار معه الى شنتبوس لعقد عقاله (٣) وفي هذه الحالة تصبح لفظة « المكرم » صفة لقصر الامارة العبادي كالشأن في تسميتنا جامع قرطبة اذ يطلق عليه « الجامع المكرم أو الجامع الأعظم » . ويحتمل أن ابن صاحب الصلاة يصف قصور الموحدين بأنها قصور كريمة (٤) . ولا نستبعد اطلاق « المكرم » على قصر

---

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٩٦ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٤٤ .
(٣) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، القاهرة ١٢٤٠ هـ ص ٥ .
(٤) يعتقد الأستاذ دون خوسي جيرو لوبو في بحثه القيم عن القصر المبارك أن صفة المكرم وهي صفة جامع قرطبة الذي وسم بالمكرم تطلق على قصر آخر غير قصر المبارك ولكنه أحدث منه عهدا . كما يعتقد أن هذا القصر كان يشغل الموقع الذي تشغله اليوم شوارع كيليرو ، وفيريا وأبو سنتاكرويس ، وريخيا ، وخيرونيمو أرماندث المسمى قديما شارع العرسى ، شارع سورا سيبلا دى لا كروش المسمى قديما شارع القصور وتتوسطها جميعا الكنيسة المعروفة اليوم بسان خوان دى لا بالما . ويستند الأستاذ لوبيد في هذا الرأى على الأسماء القديمة لبعض هذه الشوارع ويشير بعضها الى وجود قصور كما يستند على أن هذا القصر من الأبنية والشوارع كان يلتقي فيها من الأنبوب المكسور ، ومن البئر المقدس . وهنا نعثر في هذه الجهة على حي المعهد المسيحي يقومان بوظيفتهما . ومما يعزز رأيه أنه تم الكشف في هذا القطاع نفسه عن عدد من الآثار أو شارع ليبتا رقم ٩ عثر في نهاية العرب المسمى على حوض للمياه رائع كان يستعمل في إحدى مجالس الزاهرة ثم أعيد استخدامه في إحدى ماعية =

آخر غير قصر الامارة . لانه لم يرد به ذكر في جملة قصور بني عباد الوارده في شعر المعتمد نفسه وهي في معظمها ترتبط باشبيلية وأعمالها الالم

= القصر العبادي لدى [illegible] أن يكون موقعه في ذات الموضع فيما بعد
بعد ذلك في [illegible] على لوحة تذكارية [illegible] محدد
خارجية لكنيسة سان خوان دي لا [illegible] بخصوصه [illegible]
الأعلى للآثار في اشبيلية [illegible] مع كتابة تشير الى
انشاء مسجد للسيدة زوج المعتمد بن عباد . ولكن مع الموقع
من هذه الكنيسة في الشارع المعروف اليوم باسم أبو محمد درويش ،
حمام كبير [illegible] يقوم بوظيفته حتى
القرن السادس عشر . ويرى الاستاذ [illegible] أن العثور على هذه الاثار
في منطقة محددة تحديدا دعيما مع نقش يتضمن اسم احد [illegible]
المعتمد . يحملنا على النظر [illegible] هذه الاثار التي علاقة وثيقة بقصر
عبادي كبير (أنظر
Nerrero Lovillo, al - Qasr (a) - Mubarak, p. 96

غير أن الاثار التي يستند عليها [illegible] العالم الاثري [illegible]
خيريرو لوبيو ليست من النوع بحيث يمكن الاعتماد عليها لتأكيد وقوع
قصر عبادي بهذه المنطقة . فالنقش الذي يشير الى بناء المسجد في
هذه المنطقة لا يعني بأي حال أن مسجد السيدة كان مبنيا داخل المدينة
من الموحدين (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الانصاري
كتاب الذيل والتكملة . تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، السفر ١ ، قسم
١ ، بيروت ص ٢٨ . وقد ثبت أن هذه السيدة هي أم المعتمد عند
(أبو عبد الله بن محمد بن عبد الملك الانصاري . نفس المصدر السفر ٥
قسم ٢ تحقيق الدكتور احسان عباس ص ٥٢٩ وأنها أكملت مسجدها
المنسوب اليها في امارة ابنها المعتمد ، وأن احد العلماء واسمه فرج
من حديده [illegible] تولى الاقراء في هذا المسجد الى أن توفي في ١٢
المحرم سنة ٤٨٠ . فانه لا يتعلق بأي موقع قصر وانما موقع مسجد
ينسب الى شخصية من شأنه شأن مئات المساجد التي كانت تزخر بها
اشبيلية في عصر ولا يعرف أن مؤسس المعتمد قصرا في هذه المنطقة المكتظة
بالسكان . وكل ما في الامر أن مثل السيدة زوج المعتمد لا يعدو عملا
من أعمال البر في منطقة شعبية من مناطق اشبيلية . وكثيرا ما قامت
بالقيام نساء امراء بني أمية وجارياتهم بأعمال مماثلة في قرطبة مثل
مسجد شفاء ومسجد مؤنس ومسجد طروب ومسجد أم سلمة ومسجد
متعة ومسجد عجب ، دون أن يكون لمواقع هذه المساجد أي علاقة بقيام
قصور أو منشآت أميرية . أما اكتشاف حوض المياه من المدينة الى [illegible]
فلا يشكل شذوذا أو يعبر عن غرابة ، فقد كان شائعا في عصرين=

ملكي المدينة في الاندلس سعد . . . ملكية بني ابن غزلان واسد

= عدة ... ولي عهد ابو حفص [illegible] استخدام [illegible] من
اسمه مدينة ... موسعة جامع اشبيلية [illegible] عددا كبيرا من
[illegible] وكذلك [illegible] مدينة السعر
[illegible] التي ترجع [illegible] الذي
الاول . والقبة [illegible] في مصر [illegible] عددا منها المعروف
[illegible] الشفاء [illegible] اطلال [illegible] استعمالا
ماخشا ومعمل [illegible] لهدم [illegible] من
رخام وحجر ومراعد ومرمر [illegible] وخشب [illegible] ابواب ونحاس
الابواب [illegible] قسم ١ ، مجلد ٣ ص ٨٢ وقد [illegible]
لقصور الزهراء والزاهرة في [illegible] مولد محمد بن جهور ،
وكان [illegible] الاملاك [illegible] ملوك الطوائف [illegible] لشراء تلك
الالات باغلى الاثمان (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١١٠
وقد زار ابو يوسف يعقوب المنصور اطلال الزهراء في سنة ٥٨٦
[illegible]
[illegible]
[illegible] الى قرطبة ومراكش .

وهكذا لا يمكن الحوض الاموي في هذه المنطقة دليلا على وجود قصر عبادي كبير بها ، كما ان وجود حمام كبير في المنطقة لا يعني وجود قصر ، لان اكثر الحمامات التي اقيمت في اشبيلية في العصر الاسلامي ، وقد اكتشف حماما يرجع تاريخه الى عصر المرابطين داخل حانوت لشراب الفقاع والسد يسمى « بار الجيرالدا » وسجلت عنه دراسة علمية صدرت في مجلة Archivo Hispalense بعنوان
Al Sayyid Salem, Restos de un bano musulman en sevilla, en Archivo Hispalense ano 1916, No 80, Sevilla, pp. 173 177

كما اكتشف اخيرا حماما اسلاميا داخل مطعم في ممر لشارع المعتمد على صومعة جامع اشبيلية يعرف بالمسون El Meson بقيت منه بعض قبوات وعقود .

ومع ذلك مانع يمنع سابا من وجود هذه الاثار جميعا في منطقة واحدة انما يشير الى اهمية المنطقة عمرانيا . ولكن الاهمية العمرانية يمكن ان تظل على اساس عمراني بحت ، باعتبار انه يمثل الانسب من اشبيلية الاسلامية بعد ان تاهت في الاتساع زمن المرابطين والموحدين ، وليس ضروريا على الاطلاق ان تكون لهذه الاهمية ثمة علاقة بوجود قصر المعتمد . ويمكن ان يشهد روضة مسجدا حتى بجنب هذا الحد [illegible] المكان ويكون هذا المسجد مقدمة لعدد من الابنية والدور .

(١) ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٣٥ ، ٤٦٤

بكت مزنه لاعب كواكب .. ممثل موه أنثى ابرائح لعدى
بكى الوحيد [illegible] عنه .. والمهر ونسج كل دله مد (١)

[illegible] في شعر ابن زيدون الذي [illegible] اسمه قصور [illegible] ردده عدد مرات في قوله

ويعدو الى القصر الذي هو كعبة .. يعادمه مستطر أو مطرف (٢)

وفي قوله .

وربحت إلـــى القصر الذى غض طرفه
بعيد التسامى أن عدا عيره القصر (٣)

وفي قوله يصف القصر المبارك الذي متوسطه قصر الثريا ، ويشبهه بوجه يتوسطها خال ، ويقول :

أما الثريـــا [illegible] .. [illegible] واسعه وجهــا لا
قد شاقهـــا الاغياب حتى أنها .. لو تستطيع سرت اليــك خيالا
رمة وورد كما [illegible] .. واظل مراكبهـــا [illegible] لا
ونصل القصر المبارك وحده .. د وسطت [illegible] جلا
واذر هـــا من المدام أتمهـــا .. ارحـــا [illegible] واشعها حريـــالا

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ٢٤ — المقرى ج ٦ ص ١٠ ومن المعروف أن المبارك والثريا والوحيد والزاهي أسماء قصور [illegible] [illegible] الوادي الكبير [illegible] عليه هذه القصور [illegible] مرسمات الشرفة [illegible] النهر ، وقد جرت العادة في العصر الاسلامي أن يطلق عليه اسم [illegible] الشرف ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٥٣ [illegible] [illegible] العدس [illegible] الرحيم ، فقد ورد ذكره في شعر

(٢) ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١١٥

عدو ... حتى عدة مصنع •:• مهج الحو بب بوشى لا حذلا
لانه يعرض لسرور حدثنا •• فيه وتلتحف لنسم طلالا (١)

كذلك لم يرد ذكر القصر الكرم في أشعار محمد بن عباد الذي حمله في منفاه وسجل فيه حنينه المتصل الى قصره الزاهر بمنحنى الشرف ضمنه الزيتون ، وتصوره لاخرى شفيعة لاثيره لديه ، ولعل بعضها ابو ذي يكبر عن قصر الزاهر ، يشهد لوعته وأساه ، ويودعه أسمى عواطفه وأرق مشاعره من شوق وحنين وألم دفين ، يقول المعتمد :

هيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا
يغني حمام او تدن طيور
بزاهرها السامي الذرى جادة الحيا
تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده
غيورين والصب المحب غيور (٢)

وكانت تتقدم هذا القصر أو دار الامارة العبادية ساحه أو رحبة كانت تعرف في عصر الموحدين لعلها تطل على الوادي خارج باب شريش أو بالقرب من باب الفرج وهو المنفذ الذي تسلل منه المرابطون عند هجومهم على اشبيلية من جهة الوادي ، ومن هناك انتشر المهاجمون داخل المدينة ودخلوا رحبة القصر القريبة من النهر (٣) .

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٨
(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٥ ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١

ثانيا : قصور المعتمد بن عباد الملاصقة لقصر الامارة العبادي

وردت في مصادر عربية عدة قصور أنشأها المعتمد بن عباد ويتغنى بها شعراؤه ، فهي مجموعة بقصر [illegible] وتضم قصر المبارك وقصر الثريا والقصر الزاهي وقصر الوحيد ومصيف بنهر قصر الزاهر وبعض قصور ريفية أخرى .

قصر المبارك : هو قصر المبارك الذي ذاعت شهرته بين قصور بني عباد جميعا بعظمته وبهائه وجمال زخرفته فقد بناه المعتمد على نسق قصر الامارة بقرطبة ، والظاهر أنه أراد بهذا التصرف محاكاة خلفاء بني أمية العظام بقرطبة ، الذين أنشأوا بضاحية العاصمة القرطبية قصورا ومجالس، يذكر منها الكامل والزاهر والمبارك فقد قلدا في اشبيلية وابن أبي عامر في سرقسطة وأما المدحج في بطليوس . ولعل المعتمد بن عباد أراد أن يتظاهر بما كان يتظاهر به خلفاء بني أمية من سلطان وعظمة عن طريق البناء ، ولهذا قلد بني أمية حتى في أسماء قصورهم . ونافسهم في قدرته على التشييد . ويذكر الفتح بن خاقان أن قرطبة كانت منتهى أمله وكان روم أمرها أشهى عنده ، ومازال يخطبها بمداخلة أهلها ومواصلة والها اذ لم يكن في منازله قائد ، ولم يكن بها الا حيل ومكائد لاستمساكهم بدعوة خلفائها ، وأنفتهم من طموس رسم الخلافة وعفائها » (١) . فلما استولى عليها قال :

من للملوك بشأو الأصيد البطل
هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت
من جاء يخطبها بالبيض والأسل

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٢ .

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها
فأصبحت في سرى الطلى والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس
كل الملوك بـه في مأتم الوجـل

ويكفي دليلا على مدسه شبيليه بقرطبة قول الحصري المكفوف ابى الحسن على بن عبد الغني الشاعر يمدح المعتمد

أبني عباد ما حسبتم .:. الابكم الدنيا فقد
دانت به بغداد لقرطبة .. وحلائقها للمعتمد
سموا بمرشد حتى لجم .. فسموا لها دون عن الرشد
ا عوع لمدر و معمـا .. ن بلغت النجم مطل ورد
عشت أمور أميه في .. مصر أنحسه معلى عند
مقست بقصرهم أرها .:. مكأن أميه لم تشد (١)

وكان القصر المبارك من القصور التي اتخذها المعتمد سرحة و لهو ومادل الانس مع اصحابه فد أمر بصناعة غزالين من ذهب، فصنعا من سبعمائة مثقال خالصة، فاهدى أحدهما الى الرشيد ابنه، والاخر الى السيد العروس ابن مجاهد، ثم قال في ذلك بيتا من الشعر هو :

بعثنا بالغزال الى الغزال .. وبالشمس المنيرة بهلال

فلما أصبح المعتمد « على حال راحة في القصر المبارك، ودخل اليه

---

(١) ابن بسام، الذخيرة مج ٤ مجلد ١ تحقيق د. احسان عباس،

يرشد معه ويتبذل الأنس معه . ثم أمر باحضار من جرت عادته بمساعدته لحسن تكرمه من الأصحاب فحضروا ، فطلب منهم أن يذيلوا على بيته (١) .

وقد وصف الأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهبون حسن القصر المبارك فقال

فيا أيها القصر المبارك لا تزل
وأنت جديد الحلتين قشيب
ويا أيها الملك المؤيد دم به
ليترع كسوب أو يثار عكوب
أسم فيه سرح انحط من طرف سمل
[illegible] ريه عسيب
سدته م [illegible] نجوم [illegible]
لها كوكب لا حان منه غروب
محيط بما أحببت من كل صورة
تروقك حتى شكلهن غريب
ومن حبك دون السموك كأنها
أفاريد روض الحزن وهو خصيب
الى طرر تحكي أصائل ملكه
تكاد بأنداء النضار تصوب
ومن مرمر أحداه رونقة المها
فألحظا فيه اللحظ وهو مصيب
وبحر عليه للرياحين فيئة
كيمناك مخضر البرود لعوب
لئن كان مكظوما كغيظك أنه
كرمحك مصقول الأديم خضيب

---

(١) نفس المصدر قسم ٢ مجلد ١ تحقيق د . احسان عباس ، ص ٥٢١

ارى حو الاحداق أو رونق الطلى
طلاه فقيه المقول خـلوب (١)

وو صبح من هذا الوصف ان حدون نعصر لمرث وسمعه كانت تزدان بمروج رائعة تسحر اللحظ ، وتروق لحسن نظرها . وكانت لهذا القصر جنة وبها متوسطة بحيرة تحف بها الرياحين ، تنعكس ظلالهـا على صفحة البحيرة .

ويصف ابن حمديس الصقلي هذا فقال :

وبا حبـذا دار يـد الله مسحـت
عليها بتجديـد البقاء فمـا تبـلى
مقـدسـة لـو أن مـوسى كليمـه
مشى قدما فى أرضهـا خلـع النعلا
اذا فتحـت أبوابها خلـت آنهـا
تقـول بترحيـب لداخلها أهـلا
وقد نقلت صناعهـا من صفاتـه
اليهـا فأفلنيهـا فأحسنت النقـلا
فمن صدره رحبا ومن نوره سنـا
ومن صيته فرا ومن حلمـه أصلا
نسيت بـه ايوان كـسرى لانـه
اراني مثـلا ما رأيت لـه مثـلا
كـأن سليمان بـن داود لم تبـح
أوامـره للجـن فى شيده مهـلا

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ١ (تحقيق د . احسان عباس) ص ٥١٨ .

كأن عيون السحر نافذة له
عليهن فضلا من بدائعه فصلا
فكان مكان القول يبعث وصفه
وقيقا وأدى الدهر شعمه جذلى
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها
أكفه أقامت من تصاويرها ؟! كلا
تحور له الامواه بركة جدول
تخال الصبا منه مشطبة نصلا
اذا اتخذتها الشمس مرآة وجهها
اجالت عليها من مداوسها صقلا
وقد توج البهو البهي بقبة
تحس في عروس في جلابيبها تجلى
محصص الاضداد فيها مصدما
ولم أر خلقا قبلها جمع الشملا
وأغرب ما ابصرت بعد مليكها
بها مترع يعدى الشجاعة والبدلا
ولما تغشينا من توقد نورها
تحدثنا سناه في نواظرنا كحلا (١)

ويصف الشاعر في هذه الابيات القبة الرئيسية للقصر ببرك وزخارفها المذهبة والجدول الذي يخترقها ليصب في بركة صقلية المياه كالمرآة تتوسط البهو المستوف الذي تعلوه قبة جمعت من الزخارف البهية كل عرمه وتألق بأضواء تتسلل من منافذ القبة فتغمر البهو

---

(١) نفس المصدر ، القسم الرابع ، المجلد الاول (تحقيق د احسان عباس) ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

سقف نورها ، وكان مدخل القبة مكسوا بزخارف مذهبة تمثل نجوما وكواكب (١) .

وقد أطنب الشعراء في وصف محاسن القصر المبارك ، ففي شعر ابن اللبانة الذي سبق أن أوردناه ما يشير إلى أن قصر الثريا كان يتوسط القصر المبارك تتوسطه تماثيل في وجهه وعهد إلى شرب هي لهو وتنسب إلى متوسطة حرب المشار إليها .

وكان من بين أصحاب القصر المبارك غرفة ذكر المراكشي أن المعتمد سجن فيها شاعره ابن عمار ثم قتله فيها في سنة ٤٧٩هـ (٢) ، ويؤكد ابن الأبار ذلك فيذكر أن المعتمد سجن ابن عمار في بيت حصين من بيوت القصر (٣) أياما ثم قتله بيده . ويستدعي صاحب المدينة ذا الوزارتين أبا محمد عبد الله بن سلام من [illegible] ، وكان ابن سلام هذا مشغولا [illegible] من [illegible] محاسن [illegible] ابن عمار محمد بن شيع أن المعتمد قد صفح عنه ، ووعد بإطلاق سراحه . فمضى ابن سلام إلى القصر وهو لا شك في أنه سيصحب معه ابن عمار ، فما كاد يصل إلى الفصيل حتى فوجئ برؤية ابن عمار وهو « متشحط في دمائه ، مصرع في شمته ، طريح في قيده ، يسحبونه على وجهه إلى أس جدار غرفة من سواقي قصر المبارك ، فطرح في حوض كان قد حفر للجير ثم ردموا عليه (٤) . ويذكر ابن بسام أن جثته أخرجت من الموضع الذي قتل فيه ودفن في تربة خارج باب القصر المبارك ، وهو الباب المعروف

---

(١) يمثل ذلك في قول ابن اللبانة

سكت سماء لا تحب كواكبها .. يمثل نوء الثريا الرائح الغادي

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ١٢٥ ، ١٢٧

(٣) يشير ابن بسام إلى أن هذا الموضع الذي سجن فيه ابن عمار داخل القصر كان على مقربة منه (ابن بسام ، مجلد ١ قسم ٢ ص ٤٢٩ ، بحيث أتاه في سجنه وقتله فيه ، ويشتغل به .

(٤) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص ١٦٠

في اشبيلية [illegible] (١) ، كما ذكر ابن حجر ، وهو موضع [illegible] عدا [illegible] بعد اكثر من عشرين سنة ، في مدة [illegible] من [illegible] ، وذلك [illegible] . [illegible] وعطى [illegible] مكبلة بالاغلال (٢) .

أما القصر الوحيد [illegible] الذي عرفناه في شعر ابن [illegible] . فلعله كان مجلسا من مجالس القصر المبارك ، أو أنه كان جناحا من أجنحة القصر منفردا في جانب منه من جهة الوادي . أما الروضة فكانت تشغل ركنا من [illegible] القصر المبارك أو قصر الامارة ، وعهد بها دفن المعتمد ابنه المعتضد في نفس التربة التي دفن فيها القاضي أبو القاسم محمد بن [illegible] (٣) . وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لانفسهم روضة [illegible] ذكر ، [illegible] الروضة ذكر (٤) [illegible] (٥) .

القصر الزاهي

ورد ذكر هذا القصر في ابيات نظمها المعتمد بعد ان نفاه المرابطون في العدوة حيث أقام [illegible] « يندب قصوره وأعواده ، ولا يدنو منه زواره ولا عواده ، فتئن آسفا فتتصعد زفراته وتطرد اطراد المذانب عبراته ، يتذكر منزله [illegible] ، ومقصور بهجته وزاهيه » فقال

---

(١) ابن بسام ، المصدر السابق ، قسم ٢ ، مجلد ١ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٣٠ . ويستدل من ذلك على ان [illegible] حديدة استحدثت في زمن المرابطين ربما من القصر المبارك .
(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٥٣
(٤) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٨
(٥) الذيل والتكملة ، السفر الاول قسم أول ، ص ٢٢٢

بكى المبارك في اثر ابن عبـاد
بكى على أثر غزلان وآســاد
بكت ثرياه لاعمت كواكبهـــا
بمثل نوء الثريا الرائح الغادى
بكى الوحد بكى الزاهى بقبته
والنهر والتاج كل ذله بــاد (١)

كذلك ورد في القصيدة التي يندب فيها المعتمد وهــو في منفاه للحظات السعيدة التي كان يقضيها في قصر الزاهر لدى كان قد شيده بفحص الشرف ويكون من أجمل المواضع لديه وأبهجها وأحبها إليه وأشهرها لإطلالته على النهر وإشرافه على القصر ، ووجهته في العيون وشبته بالزهر والزيتون ، ويكون الزاهــر محفوفا بأشجـار الزيتون في سفح الشرف ، ويطل عليه من الجانب الآخر لاشبيلية القصر الزاهي وهذه المعروفة بسعد السعود ، فيقول المعتمد :

فياليت شعرى هل ابيتن ليلـه
امامى وخلفى روضة وغديــر
بمنبته الزيتون مورثــه العـلا
تغنى حمـــام او تدن طيــور
بزاهرها السامى الذى جاده الحيا
تشــير الثريا نحونا وتشـير

---

(١) ابن خاقان قلائد العقيان ، بمصر ١٣٢٠ هـ ، ص ٢٤

ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده
غيورين والصب المحب غيور (١)

وواضح من هذه الابيات ان ابن عمار لم يكن يرفع مقبته المسماه « سعد السعود» دون سماء مجموعة قصور مبنى عماد المصة على الوادي الكبير ، وذكر المقرى نقلا عن الوزير ابي بكر بن اللبانة الداني في كتابه « سقيط الدرر » ، ولقيط الزهر » ان المعتمد بن عباد صنع قسيما في القبة المذكورة وهو

« سعد السعود يتيه فوق الزاهي »

ثم استجاز الحاضرين ، فعجزوا ، فصنع ولده عبد الله الرشيد الشطر الثاني .

« وكلاهما فى حسنه متناهي »

ثم أكمل قائلا :

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد
قد جل فى العليا عن الاشباه

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٥ ، وقد اخذ الاستاذ هنري بيريس Henri Pérès, La Poesie andalouse en arabe classique au XI siecle. Paris, 1937, p. 139.

لكن بيروس ... والحقيقة ان الشاعر لا يذكر الزاهر فقط وانما يشير الى عظم ارتفاع القصر ويصب عليه الامر ... الى الزاهي بدلا من الزاهر مع ان ابن خاقان حدد الاسم بوضوح كما انه يشير الى موقعه على النهر بحيث يشرف على القصر ويكتنفه شجر الزيتون ويلتف به .

لازال يلمع فيهما ما شاء
ودهت عداه من الخطوب دواهي (١)

ويعتقد الأستاذ بيريس أن المعتمد كان يسكن هو وحريمه وجميع جواريه الأثيرات في قصر المبارك داخل نطاق السور وأن الزاهي كان يشغل جانبا من هذا السور من الداخل (٢) ، ولكن في موضع آخر يفترض أنه ربما كان يقوم في نفس الموضع الذي يشغله الآن برج الذهب (٣). ويؤيده الأستاذ جيريرو لوبيو فيما ذهب إليه (٣) ، ولا نستبعد من جانبنا هذا الافتراض سيما ونحن نعلم أن الزاهي كان يطل على الوادي الكبير ، وأنه لم يكن بعيدا من جهة أخرى عن القصر المبارك ، وأنه كان يطل بشرفته سعد السعود على القصر الزاهر الواقع تجاهه على الضفة الأخرى من الوادي ، وعلى هذا لا نستبعد أن موقعه على النهر مباشرة بعيدة الى حد ما عن سور المدينة ومن المعروف أن المعتمد يوم غلبه المرابطون باب الفرج ، خرج لهم من القصر المبارك حاسرا من جنته يلحق أوائلهم عند الباب وقد انتشروا في جنباته فردهم عن الباب على أعقابهم . ثم رمى ما تثلم من الباب ، ويستنتج من بروزه إليهم بهذه السرعة وقد انتشروا في رحبة القصر وليس عليه الا رقيقة ترف على جسده . «وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضع من رجفتهم أعضاؤها» (٤) ، واندفاعه عليهم بهذا العنف الى حد أنه تمكن من ردهم الى الوادي ، يستنتج من ذلك أن القصر الذي كان يقيم فيه المعتمد آنذاك كان قريبا من الباب المذكور (باب الفرج) ، وأن الموضع الذي

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٦٩ — المقري ، ج ٥ ص ١٤٦
Pérès, la Poesie andalouse, p. 137

2) Ibid, p. 136, No 3

3) Jose Guerreés lovillo, op. cit, p. 91.

(٤) الفتح بن خاقان ، المصدر السابق ص ٢٢ .

خرج منه المعتمد يقع بين باب الفرج الذى اقتحمه المرابطون وتسللوا منه الى رحبة القصر ، وبين باب الصناعة الذى وحدائقه تمتد متصلا بجواره (١) ، وهو نفس الموقع الذى سمى فيما بعد باب الكحل ، وعلى هذا النحو يمكننا ان نقول بشىء من الاطمئنان ان المعتمد يوم اقتحم المرابطون كان فى قصره المبارك القريب من مسرح الاحداث ، وانه لم يكن لا فى القصر الزاهى المطل على الوادى الكبير ولا فى قصر الزاهر المتصل بالشرف ، وكلاهما يبعد كثيرا عن مبنى اشبيلية المذكورين آنفا .

ويصف عبد الجليل بن وهبون المرسى القصر الزاهى المطل على الوادى الكبير كما يصف بهوه المنيف مقبوة خشبية مزينة بالزخارف البديعة قوامها العناصر النباتية والتوريق فيقول

وزاهٍ يكمل ما وصفت .. كما وسع الجلالة والكمالا
يخط بشكله عرضا وطولا .·. ولكن لا يحيط به جمالا
تواصلت المحاسن فيه شتى .. فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
وزور مثل ركن الطود ثبت .. ومحتال من الحسن احتيالا
تدافع من جوانبه ائتلاقا .. فكاد المستبين يقول مالا
فلو ادنو حرام السحر عنه .·. لأضحى يعبد السحر الحلالا
سماء ترتمى عمدا بحسن .. كأن بها أكاما أو تلالا
فقد كاد السحاب بها مدنه .·. ويحسب أن بحر الجو سالا
هى الشمس شهاب لم يصوب .. ولا شمسا تنير ولا هلالا
وشهو المهى سماء نور .·. تمثل شكلها حقا دجالا
مزخرفة كأن يشى القرى .. عليها من طرائفه جمالا
بعد حب الهواء يكون روضا .. ولا [illegible] يكون كذاك آلا
متى حققت أن البدر كاسف .. له طلبا وعصره زلالا

---

(١) [illegible]

فلم عـدن بحمده مـداب .. ولم أنكـر سدوقـه شتعلا
وكـس مصـدر حى حمـاد .. بيـن ميـه رهـو أو دلالا
سه عض وليس لـه حـراك .. و فهم دمـا ادى معـلا (١)

ويحـف س وعيون تعش ميل من خلص للحب كان ينصـب ق حسب من بركه ، ويمج الماء من فمه ، فيقول .

وشرع مـه مثل لنصل سدع .. من الاقبال لا يشكـو ملالا
رعـى رصد حـين محـب ، صلدا .. وقاما فلما يخشى هزالا (٢)

وكان المعتمد محد جلسته ق كثير من الاحيان على حافة البركـة ق لاسبت ، ويأمر ميقد الشموع ، ويمتع نظره برؤية الماء ينساب من مس لى البركه . وضوء الشموع ينعكس يمتد شحب شحيح ، ويأتي سواقي لعصر والدولاب تختلط بعزف الاوتار والحان المطربين .

وقد جلس المعتمد يوما على البحيرة والماء يسيل من فم دلك لعين، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه ، وكان معه الوزير الفقيه الشاعر أبـو بكر محمد بن اسحق اللخمى المعروف بابن الملح ، فقال ق دلك عـدة مقطوعات منها :

ومشعلتين من لاضواء قد قرنـا .. بالماء والماء بدولاب مصروف
لاحـا لعيني كشخصـين بينهمـا .. خط المجرة ممدود ومعطوف

[redacted]

---

(١) ابن بسام ، المجلد الاول ، القسم الثانى ، تحقيق د احسان عباس ص٥٠٨ ، ٥٠٩

(٢) [illegible] ٤٢٢

وقال فيه أيضـا :

كأن سرحي شربهم في نحدهم . . . وأسود ماء يخوض في سلاله
كرسم دولي [illegible] من كسبه . . . نعيم في [illegible] سلاسله (١)

ثالثا : قصور بني عبـاد الاخرى

١ ــ القصر الزاهــر :

يستدل من الأبيات التي ذكرناها من قبل من نظم المعتمد على أن هذا القصر الزاهر كان يقوم في موضع من تاج شرف مستقبل غربيه من [illegible] ، وكان يعرف بحصن الزاهر أو الحصن الزاهر ، كما عرفت المنطقة التي يشرف عليها بصفته الزيتون ، وكان هذا القصر من قصوره [illegible] وأثيرة لدى المعتمد ، فكان يقصده كلما أراد متعة المرح واللهو والشراب مع أصحابه وندمائه ، وكان « [illegible] من الطرب والعيش المرعي بحلاوة الحرب . مالم يكن يحلب بني حمدان ، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان ، وكان كثيرا ما يدير به راحه ، ويحل فيه انشراحه » (٢) .

ويذكر المقري نقلا عن الحجاري في المسهب أن يوسف بن تاشفين لما عدى إلى المعتمد جرت بينه مشاحنات بالعدوة وأهل العدوى كانوا يكرهون أهل الأندلس ، وحدثوا بها إلى تاشفين وقد كثر الأرجاف بنوايا يوسف بن تاشفين في إسقاط عروش الطوائف فاشتغل خاطر المعتمد بن عباد بالتفكير في ذلك ، فخرج بها يوما إلى قصر الزاهر وقعد على [illegible] ، فصنع الأبيات الآتية بعد أن انتشى لتؤلمه وستثيره .

---

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ٢ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

حموا [illegible] من [illegible] .. وأؤوا عمائمهم على الاقمار
[illegible] يوم الوغى هديه .. [illegible] انتضيت من الاقدار
[illegible] .. [illegible] در درا

[illegible] في [illegible] نصه ورمى به في
النهر فهلكت (١) .

ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ مشروع محمد بن [illegible] في [illegible] عهد [illegible] فهم [illegible] تعريبه [illegible] حول تاريخ الانشاء . ولكن [illegible] شعر [illegible] في [illegible] العصر [illegible] عابرة الى انه في جملة ما بناه المعتمد من قصور . ويمكننا [illegible] من دراستنا عن جغرافية [illegible] في العصر الاسلامي بعض [illegible] من [illegible] في [illegible] تاريخ هذا العصر . وأود بهذه المناسبة ان أشير الى أن موقع هذا العصر يتفق الى حد كبير مع اثار حصن يرجع تاريخه الى عصر الموحدين ، تقوم أطلاله حاليا في قرية تعرف باسم [illegible] San Juan Aznalfarache تقع في شرف اشبيلية على الضفة اليمنى من الوادي الكبير . ومن الطبيعي أن أربط اسم هذه القرية [illegible] مما بقى من آثار حصن الفرج ومن [illegible] في [illegible] اشبيلية الجنوبي الشرقي في اتجاه هذه القرية كان يطلق عليه اسم باب الفرج أشرت فيما سبق الى أن عسكر المرابطين تسللت خلاله الى القصر المبارك . وأعتقد ان موضع قصر الزاهر هو نفس الموقع الذي تنقلت منه آثار حصن الفرج المذكور ، واعتقد أيضا ان هذا الموضع نفسه كان [illegible] حصن قديم من عصر الامارة الاموية كان يعرف بحصن الفرج شأنه شأن كثير من الحصون التي كانت تقوم في عديد من قرى اقليم

---

(١) المقري ، نفح الطيب ج ٦ ص ١٢ .

الشرف (١) ولا تعدو ابراج (٢) تحرس هذه القرى وتتولى الدفاع عنها في أوقات الفتن ، وبنفس الاسم سمي أحد أبواب اشبيلية المطل على الوادي الكبير بجهته ، فلما سوى المعتمد بالله مرة تشييده وراء هذا الموضع ، ثم سيردد في قصيده ، مجدد سنيه و بعد أحد صوره لربعة التي ينشدها لهو و مرحه والمتعة . وسماه بقصر الزاهر لاشتماله بالزهر و سحر و ... . ثم جدد المعتمد على ابنه سياسة في سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ - ١٠٨٠) (٣) ويعتقد الاستاذ جيريرو لوبيو أن تسمية هذا الحصن بالزاهر انما جاء تقليدا واضحا لقصر الزهراء الذي أنشأه عبد الرحمن الناصر غربي قرطبة ، أو قصر الزاهرة الذي أنشأه المنصور

---

(١) ذكر الادريسي أن الشرف يمتد « مسافة اربعين ميلا ، ولهذه الاربعون ميلا كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين ، أوله بمدينة اشبيلية وآخره بمدينة لبلة ، وكله شجر الزيتون وسعته اثنى عشر ميلا ، و أكثر ، وفيه فيما يذكر ثمانية آلاف قرية عامرة آهلة بالحمامات والدار الحسنة » (الادريسي ، المصدر السابق ص ١٧٨) وقد لخص الحميري هذا النص مع ذكر بعض الرسم الذي أورده الادريسي عن عدد القرى بإقليم الشرف (راجع الحميري ، ص ١٩) وذكر المقري نقلا عن ابن صلح ان الناس يعدون الشرف من جانبي نهر اشبيلية عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة و أبراج مشيدة (المقري ، ج ١ ص ١٩٢)

(٢) يذكر العذري أسماء بعض هذه الابراج ومنها حصن شنت بيطه وحصن شيت طريس Siete Torres (الابراج السبعة ، انظر العذري ، المصدر السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤) وحصن شنت بيطه المذكور من بنيه يحيى بن عبد الله بن هاشم من البربر في زمن الامير عبد الله الاموي (العذري).

(٣) ابن عذاري ، ج ٤ ، ص ١٨٩ . يؤكد ابن عذاري انه كان موضع حصن الفرج من شقل حصن بطر اشبيلية سمي بهذا الاسم ، وبعضهم ميلا عن صالح بن سعيد وفي سنة اثنين وستين و ربعمائة جدد المعتمد على الله حصن الفرج .

محمد ابن ابي عامر شريشها(٢)، وعلى الرغم من ان هذا التفسير لايخلو من المنطق ، وانه يبدو وأقرب ما يكون الى الحقيقة استنادا الى ان الزهراء وقرطبة كانتا دائما مصدر الالهام للمعتمد بن عباد ، كما سبق ان أوضحناه ، فالاصح في بيت من الشعر يسجل هذه الحقيقة كتبه المعتمد لرفاقه نطالع فيه .

حسد القصر فيكم الزهراء . . ولعمري وعمركم ما أساء (٣)

فانني أرجح ان تسمية حصن الفرج بالحصن الزاهر أو القصر الزاهر لم تكن تقليدا لاسم الزهراء أو الزاهرة ، لان هذين الاسمين مطلقين بمدينتين متكاملتين في حين ان قصر الزاهر كان قصرا ربما اقيم داخل حصن ، وعندئذ تغير تسميته من الفرج الى الزاهر مما تم في عهد المعتمد ، لان تسميته الجديدة شاعرية تتناسب مع روح المعتمد الملك الشاعر وميوله وأهوائه وتتفق في نفس الوقت مع حقيقة المجال الذى أقيم فيه القصر ، فقد كانت تلفه بساتين ورياض غرست فيها اشجار الزيتون وأنواع الورود والازهار ولعل هذه الطبيعة الساحرة هي التي الهمت المعتمد الاسم الجديد .

ويبدو ان هذا القصر تعرض للنهب والتدمير بعد سقوط دولة بني عباد ، ولكن اطلاله ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الهجري . وكان ما يزال يعرف بالحصن الزاهر بعد أن فقد كل خصائصه كقصر أميري . ويذكر ابن الابار ان المريدين اتباع أبي القاسم بن قسي وصاحبه ابي الوليد محمد بن عمر بن المنذر تحركوا بقيادة محمد بن

---

2) J guerrero Lovilo, op cit p 94 Julis gonzalez, Repartimento de sevilla t 1, p 495 وراجع

(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٠ .

الغدر من بعد نحو اشبيلية ، فدخل حصن القصر (Aznalcazer) وطبلاطة (Tejada) من اعمال شرفها ـ وقد كثف جمعه وكثر حشده ـ فمضى الى حصن الزاهر ودخله . ونصل طريانة (Triana) اكتسح أصحابه أمام طائفة من جيش أبي يعقوب يحيى بن علي بن غانية (١) ثم تعرض هذا الحصن من جديد للتدمير عندما حاصرته قوات البرتغاليين في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢) م (٢) . ويذكر ابن عذارى أن يعقوب المنصور خليفة الموحدين أمر في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) بتخطيط مدن بخارج اشبيلية بكون فج الشرف ، ليأخذ بمجمع بحرها ، ويكون كمطلع بين سحرها ونحرها ، فقامت في أدنى مدة أشخاص الاسوار ، ومثلت مواضع الدور ، وكمل القصر الكبير بمجالسه المشرفة على شعيبة وما والاها من البطاح والانهار التي مسمى نهر الاعظم . وكان بناؤه ذلك من أصحهم عمل ووقع به أمل . والمنصور يتحمد (شمسه) يتشوف الى اتمامه ويوالي السؤال عما يتزيد من مثالته ، حتى برح به الشوق الى التشفي من مشاهدته ، والى معاينة كيفية الوضع معاينة ، موجه عن النظر فيه ، فوصل اليه وعرفه بكيفيته ، فزاد شؤون المنصور به وسماه بحصن الفرج ... » (٣) وقبل أن يرحل المنصور للجهاد في جمادى الآخرة سنة ٥٩١هـ حيث انتصر في موقعة الارك المشهورة ، ركب

---

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٣ .

(2) Torres Balbas. Aznalfarache. al - Andalus, Vol. XGV p 223

ولكن ابن عذارى يذكر ان البرتغاليين خرجوا من جهة شنترين والاشبونة ووصلوا في غزوتهم الى قرية شلوقة (Sanlucar) من الشرف ، واغاروا على حصن القصر وغيره ، دون ان يذكر اسم حصن الزاهر (ص ١٠٨) وفي نفس السنة يذكر ابن عذارى ان العدو تغلب على حصن شقبيلة وهو نفس حصن شنشنة الذي سبق الاشارة اليه (ص ١١٩)

الى حصن الفرج ، وعابه ما تم بدؤه من الحصن فأعجب به (١) فلما تم له الانتصار على قوى المسيحية في الأندلس في تلك الموقعة ووصل الى اشبيلية مظفرا منصورا . خرج للوقوف في [illegible] من تلك [illegible] مشرفة على النهر الأعظم . وقد عاش فيه شعراء ينشدونه قصائد مدح ، أشهرهم الشاعر علي بن حزمون المرسي (٢) . وفي نفس السنة (٥٩٣هـ،١١٩٥م) انتقل الى حصن الفرج [illegible] وأكمل غرس حدائقه المحدثة في الحصن . وأمر بنقل [illegible] عيسى [illegible] تحت الحصن ليستكمل بها حصن الموضع (٣) . ثم نزل بالحصن مرة أخرى في سنة ٥٩٣ هـ أي في أعقاب مروقه تلك . حيث أقام بعيد عمل الصيف وتمتع برقة هواء الحصن (٤) . وهكذا نتبين أن حصن الفرج الذي جدد المنصور الموحدي بناءه وأصلحه [illegible] لم [illegible] سوى حصن الزاهر الذي كان جدد المعتمد بن عباد مدينته وقد بقيت من الحصن آثار أسوار مكتنفها أبراج مربعة الشكل ضخمة سنتحدث عنها في جملة الآثار الباقية من القصور .

٢ ــ المنيات والمجالس والمتنزهــات :

بقي بعد ذلك عدد من المنيات أو المجالس التي أقامها بنو عباد من الأمراء و [illegible] بها الحدائق وتشتهر بالورود التي تحرز صفاتها بالأشجار والأدواح . وكان المعتمد بن عباد يقصد هذه المنيات مع الجواري والأحبة ، ليقضي مع ندمائه وأصحابه ساعات ، يفترشون خضرة أرضها ، ويستجلون الأنظار في جمال مناظرها ، ويتمتعون بالسماع

---

(١) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٩٣ ، ١٣٢

(٢) المراكشي ، المعجب ص ٢٩٣ .

(٣) ابن عذارى ، ص ١٩٨

والحرب في ظل فصيح خاص . وقد ورد أسماء هذه المجالس في المصادر المعروفة . ويمكننا أن نتوصل بعد إلى تحديد بعض من هذه الأسماء من المعروف أن تسمى زمن بني عباد . ويمكننا هنا أن نذكر دار المزينة ومجلس السيح في مصلى المعرس ، والمسرة وذي السطح .

١ ـ دار المزينة :

عند ما نتحدث عن دار المزينة تتصدرنا المزينة وهي المستحدثة للبيضاء ، وقد تكون دار المزينة . أي الدار المسماة بكثرة زخرفها وبستانها . وأين هي دار المزينة . فقد كانت دار ريفية تزدان باحتها بالنوريق والشجر الطويل ، وينبت فيها الأشجار وتكتمل الأزهار ، ويحيط بها ثرى الماء التي تكتنفه الورود والزهور والآس وانحسار الزاهية . والظاهر أن المعتمد أنشأها في مستنبت قصره ليجعل فيها مجالس أنسه ومرحه . وقد وصف الفتح بن خاقان مجلس هذه الدار . فذكر أن الخمر دونه من المعتمد ، « حل عليه في دار المزينة والزهر يحسد إشراق مجلسه ، والمدد يحكي اتساق تأسيسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ، والغصون قد التحفت سندسها ، والأزهار تحيي بطيب تنفسها » (١) ولا أستبعد أن يكون موقع تلك الدار في الأرض الممتدة خارج باب جهور من أبواب إشبيلية ، وهي نفس المنطقة التي اختارها أبو يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي لبناء قصوره المعروفة بالبحيرة (٢) . والظاهر أن مباني هذه الدار كانت تتصل بمباني القصر المبارك ، وقد أقيم فيها مجلس أنس كان يتردد عليه المعتمد في أمسياته القمرية حيث يستحضر المبارك مصابيح التمويه لفتح هذا المجلس.

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٩ المقري ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ١٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ٤٦٤ .

ويذكر دحون نحر ندوته عن المعتمد في مجلسه ، « في ليلة قد ثنى سرور عنقه ، وامتطى ظهور عزمها وسنامها ، ونزع الانس فؤادها ، وستر بعض لامس في سوده ، وعزل سبسبم لروض زوارها وعو ده ، ونور سرح عند ممسي اديمه ، ومحص لحن لارض سمعها ، و محس مكسى بالمعنى ، وصوت المثنى والمثلث عالي ، والبدر قد تم ، و تحف بصوته تقصر وانتهى ، وتزين مسحه وتحمل » (١) .

ب ــ مجلس العرس :

وكان مطلاً بقعته المزرومة ملتح على الوادي الكبير خارج باب جهور من شرقيها ومستقبل وكان البرج قاعه يسمو مقتقهـ ، ويطلو متعمها عن مجموعة عصيرة من عدد ويذكر ابن خاقان أن المعتمد قصد هذا المجلس في يوم « قد نشر من غيمه رد ، ند ، وأسكب من قطره ماء ورد ، وأبدى من برقه سنا دو ، وأظهر من قوس قزح عرجه حنايا آس حفت بورد وجسار ، والروض قد بعث رياه ، وبث اشكر سقيه ، فكتب الى الطبيب أبي محمد المصري (حبيب) .

أيها الصاحب الذي فارقت عيني
ونفسي منــه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهب الرا
حة والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التي تسمى من اللـذ
ة والرقة والهوى والهواء
فاتـه تلف راحة ومحيـا
قد اعدا لك الحيا و لحب

---

(١) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٦ ـ المقري ، المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٧ .

مواتاة ، وألفى مجلسه وقد أتلعت فيه الاباريق أجيادها ، وأقدمت فيه خيل السرور طرادها ، وعطفه الاماني انطباعها وانقيادها ، وأهدت أندلس ليومه مواسمه وأعياده ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيه الحدائق أبناعها ، فأديرت وتعوطيت الأقداح ، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من أنسه ما بسط نفوس جلاسه ، ثم دعا بكبير ، فشربه كما غربت الشمس في ثبير ، وعندما تناولها قام المصري منشدا بيت تمثله

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
بشاذ مهر ودع غمدان لليمن
فانت أولى بتاج الملك تلبسه
من هوذة بن علي وابن ذي يزن (١)

وواضح من البيتين الاخيرين ان التاج هو اسم القبة التي تظلل مجلس العرس ، وشاذ مهر هو البستان ، ويستدل على اسم العروس من الابيات الآتية التي كتبها ذو الوزارتين ابو الوليد بن زيدون ، وكان حاضرا المجلس المذكور :

يا جمال الموكب الغادي اذا
سار فيه يا بهاء المجلس
شرفت بكر المعالي خطبة
بك فانعم بسرور العرس
وارتشف معسول ثغر أشنب
تجتنيه من مجاج العس

---

(١) الفتح بن خاقان ، ص ٧ - المقري ، ج ٦ ص ١٨ .

واعتنق بالسعد ذي حسنت الثنى
مصنع الصنع دهش الاكؤس (١)

وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يؤثر النزول في هذا المجلس كلما حل باشبيلية ، ويصفه الفتح بقوله « وهو موضع مستبدع كأن ابن ... مودع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم ، وروض كما وشى برد بد راقم ، وزهر يحسد ريه ، ويشفى بصحيح أن تشم به محياه » (٢) .

ومنه هو نفس الموضع الذي أقام أبو يعقوب يوسف الموحدي بالقرب منه قصور البحيرة خارج باب جهور (٣) .

وكان يشق تلك الرياض الممتدة خارج باب جهور واد متفرع من نهر الوادي الكبير كان معروفا حتى عهد قريب قبل أن يردم يسمى بالطريفي Tagarete وكانت تتخلله خارج باب جهور بحيرة ذكر ابن عذارى انها كانت تقع خارج هذا الباب (٤) استغلها ابو يعقوب يوسف في انشاء بحيرة صناعية احيطها داخل صوره التي بنتها فيما وراء باب جهور وعرفت بقصور البحيرة (٥) . ولعله نفس البحيرة التي يسميها الفتح

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨ ، المقرى ، ج ٢ ص ١٩٢ .
(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ص ٤٦٤ .
(٤) ابن عذارى ، قسم ٣ ص ١٩٢ وفي ذلك يقول بمناسبة وصول المنصور الموحدي الى اشبيلية في سنة ٥٩١ هـ قبل توجهه لمحاربة القشتاليين وحلفائهم من دول اسبانيا المسيحية في موقعة الارك « ولما وصل المنصور الى اشبيلية نزل بظاهر بحيرة باب جهور ، وخرج الملأ من اهل البلد [illegible] برسم السلام عليه » .
(٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٦٤ حيث يقول في معرض حديثه عن موضع قصور البحيرة المعروف عند الناس تقدما بسم مرغوب « واحاط بيرته معه في صحن المعروف لابن مسلمة » . راجع ايضا ابن عذارى ، قسم ٣ ص ٩٥ .

من جنان باسم البحيرة الصغرى معبرا بها عن مجموعة صغيرة من [illegible] مركبين صناعيين [illegible] [illegible] البحيرة الكبرى من المعتمد بن عباد لاستحداث ، [illegible] نجوم فتبدو على صفحة مياهها كالأزهار (١) .

ج — منتزة وادي الطلح :

كان المعتمد [illegible] هذا الوادي مع رميكة ، وهي اعتماد حرمته وأم أولاده ، [illegible] اشجار كثيرة الفاكهة (٢) . ويذكر المقري أن وادي [illegible] الاشجار كثير [illegible] الازهار (٣) ويذكر ابن سعيد [illegible] (٤) .

ثالثا : قصور الموحدين المجاورة لقصور بنى عباد

اهتم خلفاء الموحدين فى الاندلس ببناء القصور ، وحظيت اشبيلية حضرتهم فى الاندلس ، بعنايتهم ، فأسسوا ملاصقة الى قصور بنى عباد قصرا للامارة ملاصقا لبعض قاعات القصر المبارك والثريا ، كما اقاموا قصور البحيرة خارج باب جهور ، وقصور أخرى لسادة الامراء خارج باب الكحل ، هذا الى اعادة بناء حصن الفرج فى الموضع الذى كان يقوم فيه الحصن الزاهر .

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٤

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ج ١ ص ٢٩٦ .

١ ـ قصور البحيرة :

في شهر صفر سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) أمر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أثناء مقامه في إشبيلية ببناء « قصوره لكرمة السعيدة المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من إشبيلية » . كما أمر بأن يحفظ بجوار هذه القصور في جنته المسماة لابن مسعمه القرطبي، بعد أن انتزع منه ملكيتها مقابل عوض صحيح من أحباس منها . وفي هذا الموضع ابتنى الخليفة القصور المذكورة ودورا للأمراء، وغرست لقصور التي ابتناها الخليفة محمد بن المعلم لأخيه السيد أبي حفص عمر وذي التسمية خارج باب المكحل . وقد تولى بناء قصور البحيرة ودور الأمراء المهندس أحمد بن باسه عريف (١) البنائين في الأندلس، فاستكمل بناءها وجاءت من الحسن بحيث يحار فيها الوصف » أربت على مباني الخورنق والسدير . وصنعت بباب جهور كصدر أسيج » (٢) . ضم سورها مسور مبنية من الجير والرمل والحصى . وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد عهد إلى كل من القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد الحوفي الإشبيلي (ت ٥٨٨ هـ) وأبي بكر محمد بن يحيى الحداد إمام جامعة إشبيلية (ت ٦٠٠ هـ) والموثق باختطاط ما يلزم لإقامة بساتين ملحقة بالقصور تغرس بأشجار الزيتون والأعناب والكمثرى والأجاص المسمى بعنبقر والأترج والتفاح، فاجتهدا فيما أمرهما به، وكان الملتزم للحفر في غرس البحيرة المذكورة الشيخ أبو داود بلول بن جلد من مشرف إشبيلية وأعمالها تحت إشراف السيدين أبي العلاء ادريس الوزير وأخيه يحيى(٣).

ثم نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف في مشكلة توصيل مياه إلى قصوره بالمسلة والبحيرة، وعهد بذلك إلى المهندس الحاج يعيش، وكان

---

(١) يعني أحمد بن باسه إلى أسرة أندلسية متخصصة في فن البناء .
(٢) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٦٧ .
(٣) ابن صاحب الصلاة ص ٤٧٦ .

خارج باب قرمونة أثر قديم بعد به العهد من بنيان جسر روماني قديم غلب عليه الارض ، وأصبح مجرد خط رفيع من حجاره لم تكن معروفة جهة منه . فأخذ الحاج يعيش المهندس يتتبعه ، وحفر حوله ، فبدا له جسر قديم يرجع تاريخه الى العصر الروماني « شرب قد جلب فيه الماء قديما في أنسبه من عمل لأوائل الملوك من الروم الماضية والقرون الخالية » (١) بعد أن الحاج يعيش يتتبعه بالحفر حتى أوقعه الحفر في العين القديمة المسماة عند أهل أشبيلية معي العصر ، مبني بعد محجته انها بنيت عند كل الطين ، وانما كانت متقنا في مجسر روماني . فاستمر يعيش يواصل الحفر حتى اهتدى الى أصل الجسر قرب قلعة جابر (٢) Alcala de Guadaira فأصلحه المهندس الحاج يعيش وأجراه الى داخل أشبيلية حتى البحيرة ثم أمر بتنقيته موحدى بجريه الى داخل أشبيلية وبنى بحور بني عبد المنعم سائده وينتفع الناس من مدده في شربهم ومرافقهم ، كما أمر ببناء محبس للماء في حارة ميور (٣) El callejon del agna وتقابلها اليوم حارة الماء

وما زالت بقية من هذا الجسر قائمة خارج باب قرمونة من أشبيلية ، ويمكن عقوده في هذا القطاع من الاجر ، وبعضها لآخر من الحجر .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦٨ .

(٢) تقع قلعة جابر شرقي اشبيلية على مقربة من قرمونة واليها ينسب جابر بن حدوش القطمي الذى يقول :

الا ما سقى الرحمن قلعة جابر فكم لي فيها من ليال زواهر (راجع ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ تحقيق د . شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٩١) .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٦٩ .

٢ـ أعمال الموحدين داخل قصور بني عباد باشبيلية :

من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون في مجموعة الأبنية التي تؤلف اليوم قصر اشبيلية فقد كل سالف من قصور مختلفة في مركزين رئيسيين قصر الملك بدرو الذي أقامه في سنة ١٣٦٤م على أبنية إسلامية، والقصر المسمى بالقصر القديم .

ولا شك في أن الموحدين هدموا جانبا من قصور ابن عباد وأقاموا مكانها قاعات جديدة تتفق زخارفها وينسجم تخطيطها مع الأسلوب الشائع في فنون الموحدين ، وتتميز بالجمع بين البساطة التي تسمت بها عمائرهم في المغرب والغلو في الحشد الزخرفي والميل إلى المعقد وهما خاصتان بارزتان في فنون الأندلس في عصري الخلافة والطوائف وقد شاع في فن الموحدين استخدام شبكات المعينات في المسطحات المراد زخرفتها كما هو الحال في صومعة جامع اشبيلية وفي دكة بهو الجص بقصر اشبيلية . ولم يتبق من إضافات الموحدين في قصور بني عباد سوى الدكة المذكورة ، والبهو المصلب المجاور ، هذا إلى جانب بهو الجدل . وسنعود إلى الحديث عنها عندما نتعرض لدراسة آثار هذه القصور وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد أقام القصبة الداخلية والخارجية في سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) : أما الداخلية فتضم قصور بني عباد وما أضيف إليها من قصور الموحدين داخل نطاق المدينة (١) ، وكان المشروع يستهدف كذلك ضم بنيان المسجد الجامع بالقصبة . وأما القصبة الخارجية فقد أقيمت خارج باب الكحل (٢) ، وكانت تحيط بقصور السادة الأمراء إخوة الخليفة وأبنائه . ويحدد

---

(١) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٢٨

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ٢٣٥ .

ومن المعتقد أنها كانت تقوم في نفس موضع قصر سان تيلمو «San Telmo» وحدائق مار لويسا المطلة على الوادي الكبير .

ابن صاحب الصلاة امتداد أسوار القصبة الداخلية فيذكر أنها كانت تبدأ من رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية، وتضم جامع القصبة ودار الصومعة حتى المرحل السفلي المتصلة بباب الكحل (١) . ولكن عمال البناء في أسوار القصبة الداخلية لم تلبث أن توقفت بعد وفاة الخليفة(٢) لأن أبا يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدي الجديد أعرض عن بناء هذا السور (٣) . وكان الموحدون قد هدموا أسوار قصور بني عباد واستخدموا حجارها في بناء أسس صومعة جامع اشبيلية وكانت من الطراز العادي أو القديم المسمى بالطجون (٤)، وهي أحجار من نفس نوعية أحجار الركائز الباقية بجامع ابن عدبس . ومن المعروف أن هذا المسجد أقيم بناؤه من أحجار السور الروماني كالشأن في سور قصر الإمارة العبادي . وبهذا نعتقد أن ابن بسة استخدم حجارة سور القصر العبادي في بناء القسم الأدنى من الصومعة مما تحت الأسس، وقد رأيت كتلتين تحملان بعد نقشا لاتينيا . ويظهر أن ابن بسة توفي قبل شروعه في بنيان القسم الأدنى من الصومعة بالحجر، فتوقف على أثر ذلك البنيان بالأحجار واستبدل بها البنيان بالآجر وتم ذلك على يد علي الغماري .

٣ — قصور السادة الموحدين :

يؤكد ابن صاحب الصلاة أن محمد بن المعلم العريف تولى الإشراف

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٨٠ .

(٢) ذكر ابن صاحب الصلاة أنها ستة عشر يوما (المن بالإمامة، ص ٢٣٥) .

(٣) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٨٢ .

(٤) نفسه . ولعل الطجون تعريب من كلمة «Tajon» الاسبانية ومعناها كتلة من الحجر الجيري .
Diccionario de la lengua espanola, Publicado por la Real Academia Espanola, Madrid 1947

على مبانى السيد ابى حفص اخى الخليفة ابى يعقوب يوسف ، التى تمتد به على وادى اشبيلية خارج باب الكحل ، فى موقع يمكن تحديده من سور القصبة البربية ودار الصناعة . ويعتقد الاستاذ جوليو جنثالث أن هذا الموضع بعين موضع القصر المسمى بيت تيمو (١٦٨٢ ـ ١٧٣٣) استنادا الى أنه كانت تقوم فيه مبنية فى عصر الاسترداد (١)

وهناك قصور أخرى كانت تقوم عند سقوط المدينة فى أيدى القشتاليين بالقرب من الباب المسمى فيما بعد بباب البركيتة La Barqueta فقد منح الملك الفونسو العاشر أخاه الأمير دون فادريكى Fadrique قطاعا ضخما يقع بين دير سانتا كلارا والباب المذكور ، ويضم من بين محتوياته قصرا وبساتين ممتدة . وفى هذا الاقطاع شيد برجا اتبع فى بنائه الاسلوب القوطى ، ما يزال قائما حتى اليوم ويحمل اسمه (٢) . ولكن لم تكد تمضى سنوات على ذلك حتى صادر الفونسو العاشر ممتلكات دون فادريكى بسبب خلاف وقع بينهما ، وقدم الملك قسما من هذه الممتلكات الى منظمة قلعة رباح الدينية فى ١٨ مارس ١٢٧٣ فى حين قدم سانشو الرابع قسما آخر منها هبة الى طائفة الراهبات الكلاريسات بمرتشكايات فى سنة ١٢٨٩ ، وفى هذا القسم أقيم الدير القائم فى الوقت الحاضر . وقد أقامت منظمة قلعة رباح فى البساتين المجاورة لباب الرحل كنيسة سان بنيتو San Benito ودورا لرئيس القساوسة وكان سانتا لوثيا يتميز بشوارعه الضيقة ومن بينها شارع الشمس وشارع الاعراب ومبانيه التى كان يسكنها المدجنون فى القرون الثلاثة التى أعقبت وفاة فرناندو الثانى وفى وسط شارع الشمس كان يقوم البيت المسمى بيت الملك المسلم Casa delrey moro ويعتقد

---

1) Julio Gonzalez, Repartimiento de Sevilla. t.I, p. 493.

2) Elie Lambert L'art gothique a Seville p. 160 Santiago Montoto, [illegible] de Sevilla, Madrid 1951, p. 126

تليستينو لوبث مرتينث بعد دراسة حول التعبيرات المختلفة لاسم هذا الملك ان المقصود بالملك المسلم هو ابن محفوظ صاحب لبلة ولعرب (١) الذى نزل فى هذا البيت او القصر فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) (٢). وقد يكون المقصود بالملك المسلم ملك يعتبر بالمعنى الحكم فى اسبانيا الاسلامية ، ونعنى سلطان غرناطة محمد بن الاحمر الذى قدم الى اشبيلية فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) لتجديد معاهدة الصلح المعقودة بينه وبين الملك الفونسو العاشر ملك قشتالة ، وكان يصحبه صهره الرئيس ابو محمد و ابو اسحق ابنا اشقيلولة مع قوة غرناطية من خمسمائة فارس . فخرج اليهم الملك الفونسو العاشر لتلقيهم ، ودعاهم لزيارته داخل المدينة ، فانسحب ابن الاحمر ، ودخل اشبيلية مع صهريه وحماته من فرسانه . غير انه بالمعاهدة معه وهو رفيق ضمن من شيعته . وفى الصباح المبكر ابلغ بأن القشتاليين سدوا الدروب الموصلة الى مكمنه بقصد ان يفاجئوه لسمرة معويق سير الخيل ، فخشى على نفسه ، وشم رائحة الغدر به ، وبالزعيمين ابنى اشقيلولة فأمر رجاله بكسر هذا الحشد وارتحل مع أصحابه فغادروا اشبيلية ، مغاضبا للالفونسو . ولم يقتنع باعتذار الفونسو الذى أقسم انه لم يأمر بسد الدروب الا بقصد حمايته من اللصوص (٣) .

وواضح من هذه الرواية أن البيت المسمى بيت الملك المسلم يمكن ان يقصد به القصر الذى نزله السلطان الغرناطى ، اذ ان ابن محفوظ

---

(١) ابن عذارى القسم الثالث ، ص ٤٣٦ .

(2) Celestino Lopez Martinez, Mudejares y moriscos, p. 19
وقد ايد سانتياجو مونتوتو Santiago Montoto هذا الرأى فى كتابه عن شوارع اشبيلية (Santiago Montoto, Las Calles de Sevilla, Sevilla, 1950 p. 426) حيث يسمى هذا الملك باسم Abenmafor اى ابن محفوظ

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٤٣٥ .

صاحب لبلة كان قد أخرج أهل سبته منها قبل ان يدخلها القشتاليون ، ووصل مع قومه الى مراكش في خلافة المرتضى الموحدي .

واذا كان الاستاذ جيرولومو يعتقد ان رسم المدينة هو القصر فهذا الاعتقاد فيه يبدو خطأ، لأن شرع الشخص كان يقع في أقصى الشمال الشرقي من شنتمرية غرب من باب قرطبة ، أو بين هذا الباب وباب الفتح المحور بباب قرمونة واذا كان هذا سمي بالمعتمدية ، فإن هذه التسمية ترجع الى أن المعتمدية التي كان يسكنها في اشبيلية القاضي اسماعيل بن عباد .

رابعا : الآثار الباقية من قصور بني عباد والموحدين

١ ـ آثار القصر المبارك وحصن الامارة العبادي والقصر الزاهي .

بعد ان نكب المرابطون آل عباد ، وأسروا عميدهم المعتمد ونفوه الى العدوة ومنها الى أغمات ، ووقع النهب في قصره (١) ، هبت على اشبيلية ريح عاتية من التدمير شملت قصوره التي كان قد شيدها للهوه ومراحه . أما القصر فقد رجحنا أنه كان مقاما في نفس الموضع الذي يقوم عليه اليوم برج الذهب ، والمنطقة المجاورة له من جهة القصر حتى برج الفضة ، واما القصر الزاهر فلم يبق منه في عصر الموحدين لا آثار دارسة وجدران واهية سماه المنصور حصنا اسمه حصن الفرج ، كان يشتمل على قبب وقصور ، واما القصر المعرس ومجلس النسج ، فقد ظل يحتفظ بعناصره في عصر المرابطين وكان يتردد عليه الامير على

---

(١) المقرى ، ج ٦ ص ٢٠ ويذكر عبد الواحد المراكشي ان البربر بعد دخولهم اشبيلية لم يتركوا لاحد من أهلها سبدا ولا لبدا ، » وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا » (المراكشي ، المعجب ، ص ١٤٢) .

بن يوسف . ولكنه تعرض بدوره للتدمير في موجة الاضطرابات التي ولاحت بنهاية عهد المرابطين في الاندلس . ولم يبق من آثاره سوى بحيرته الكبرى لوقوعها خارج باب جهور . ولما اعتبر المبارك وما يتصل به من محاسن ضخمة كمشرف والبحيرة ومقر للامارة ، فقد نجا من عبث المرابطين ، وبقيت محتفظة الى حد كبير بعناصره الاولى طوال عهدهم وبداية عهد الموحدين .

وقد ظل القصر المبارك مقراً لشيوخ دولتي المرابطين والموحدين، ونستدل في ذلك على النصوص التاريخية التي أوردها كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى . ونستنتج من هذه النصوص انه بعد وفاة بن مردنيش وطاعة أبنائه من بعده بقيادة هلال بن مردنيش مظهر طاعته الخليفة الموحدي ابي يعقوب يوسف في اشبيلية ، تقدم مع آله وأصحابه ليعلن طاعته للخليفة ، فأرسل الخليفة الى لقائه أخويه السيد أبا زكريا يحيى وأبا ابراهيم مع غلبة من أشياخ الجماعة من الموحدين، فتلقوه مستكرمين على أميال من شبيلية ، وصحبوه اليها ، فدخل « في صحبتهم الى القصبة العتيقة الى مجلس الخليفة رضي الله عنه » (١) وذلك في أول رمضان سنة ٥٦٧ هـ . ولما تمت مبايعته للخليفة ، أنزله «في قصر (٢) محمد بن عباد أمير اشبيلية الرفيع الشأن ، العظيم البنيان ، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به (٣) . وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشروب والمآرب ، وأفهموا أنهم الاقارب والاصاحب » (٤) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٧٢ . ويستدل من النص المذكور أن الخليفة الموحدي اتخذ من قصر الامارة العبادي مقراً للحكم .

(٢) المقصود به القصر المبارك بشبيلية .

(٣) والمقصود بهذه الدور مخصص للملحقات الخاصة بهذا القصر .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٧٢ ، (٧١) ، ابن عذارى ، ص ٦٦

وفي العام التالي (في النصف من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ) عاد الخليفة الموحدي من رحلته مرسية وصحبه جميع أولاد محمد بن مردنيش وعائلاتهم وعشائرهم وأخوتهم . فأنزلهم الخليفة أحسن في قصر ابن عباد وفي الدور المتصلة به . واشترى لهم دورا باشبيلية من أربابها لسكناهم على أن الخليفة لم يلبث أن هجر ... بني أبو يعقوب يوسف قصور البحيرة ، والظاهر أن بعض جدران القصر قد هدمت وسقطت . واتفق ذلك مع شروع العريف أحمد بن باسه في بناء مشروعه جامع القصبة فشرع في هدمه ونقل ما أمكنه من الأحجار لصحنه ، استخدم في ذلك الأحجار المقتلعة من سور قصر ابن عباد . وهكذا أدى الدور الخارجي لقصر المبارك وقصر الامارة لعوادي بتهدم ويعاد استخدام ... في بناء الموحدين الأخرى ، أما القصر نفسه فمجالسه فإنه ظل محتفظا بمكانته ، ويذكر المراكشي أن القصر المبارك كان ما يزال عامرا في عهده (١) ويؤدي وظيفته كمقر صيفي للموحدين على الرغم من ضعف الدولة الموحدية عقب سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) دخل الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود مدينة اشبيلية بحيلة دبرها وقتل شيخها أبا مروان ابن الباجي غدرا ، وأقام في القصبة شهرا (أي قصر الامارة) ولكن أهل اشبيلية أخرجوه منها وجددوا بيعتهم لأبي عبد الله محمد بن هود (٢) .

ثم سقطت اشبيلية في أيدي القشتاليين في (٢٧ رمضان ٦٣٦ هـ) ٢٣ من ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ، وأصبحت قاعدة لملوك قشتالة تحـد

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥١٦

(٢) ابن عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٢٥ (يقول في معرض ... عن قيام المعتمد محسن ابن عمار وحمل في عزمه على ... قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك . وهو باق الى وقتنا هذا .

(٣) ابن عذاري ، ج ٤ ، قسم ٣ ، ص ٣٢٢ .

هؤلاء بقصر إشبيلية مقرا لهم ، وأصبح هذا القصر والمجموعة [illegible] الموحدية مقر فرديناندو الثالث وألفونسو [illegible] وبدرو الأول حتى ملوك قشتالة ، و[illegible] شيد به [illegible] في شكل مجلس حضرة رئيسية [illegible] (١) . ثم [illegible] ألفونسو العاشر [illegible] على [illegible] بعض [illegible] في القصور [illegible] . فأسس [illegible] على طراز قوطي [illegible] قاعة طويلة [illegible] موضعه [illegible] Banos de Maria de Padilla كما [illegible] ثلاث قاعات كبيرة [illegible] في عهد شركن (٢) . ثم [illegible] الملك دون بدرو الأول الذي عرف بمحبته للفنون الإسلامية [illegible] في قصر الموحدين الذي [illegible] على [illegible] كراكول Cuarto de Caracol المدرسة (٣) ، وأقام قصرا جديدا أقرب ما يكون إلى القصور التي تعمر غرناطة [illegible] في بنائه مواضع من العصور السابقة ومستعينا بعرفاء مدجنين من طليطلة وإشبيلية . وعرفاء مسلمين استقدمهم من مملكة بني الأحمر بغرناطة . ومن المعروف في العصور الإسلامية كانت تمتد حتى الموضع الذي تشغله دار التجارة مع الهند Casa de la contratacion de las Indias ومنها [illegible] العصر [illegible] والكاتدرائية ، وكانت تعرف في سنة ١٣٣٢ م باسم القصر القديم (٤) .

---

1) Elie Lambert L'art gothique a Seville apres la reconquete. Revue Archeolgique, Paris, 1932, p. 155

2) Ibid, p. 161

3) Guerrero Lovillo. guia de Sevilla, ed Aries, Barcelona, 1952, p p. 11 Lamperez (V.), Arquitecture civil espanola, del los siglos I al XVIII, Madrid, Vol. I. 1922, p. 599

4) Torres Balbas Ars Hispaniae. T IV arte Almohade. Madrid 1949, p. 30.

وقد بدا دون [illegible] حول [illegible] بترميم القصور الاسلامية والمساجد (١) ثم [illegible] تشكيلات عدة ومجموعات داخل نطاق و عصر [illegible] أخرى [illegible] جديدة وفق لطراز عصر النهضة وكذلك [illegible] كل من [illegible] و [illegible] جديدة (٢)، [illegible] هذه [illegible] أخرى (٣) و هدم و ترميم كما حدث في عهد [illegible] (١٨٥٤ ١٨٥٧) (٤) .

ومع [illegible] ذكره من اضافات وهدم وترميم فقد كان مسلم من القصر المعروف [illegible] في عهد بدرو الأول مجمع الى الموسيو [illegible] أسس [illegible] عوضي [illegible] من القصر المبارك أو داخل قسم منه وكذلك حول [illegible] Patio del crucero ، كما أقام [illegible] ذلك [illegible] المزروعة [illegible] في قطاع القصر الموحدي ومن [illegible] هدم [illegible] أخفى قسما كبيرا من قصر المبارك وقصر الامراء [illegible] ومع ذلك فقد أبقى على قسم لا بأس به من القصر المبارك . ولاشك في أنه ساعد على اقامة المنشآت الجديدة تصدع المنشآت الاسلامية أو سقوط بعضها وتحرقه في أعقاب الحصار الطويل (خلال ١٧ شهرا) الذي أحكمه القشتاليون حول شبيلية وما تبع ذلك من قذف هذه المنشآت بالمجانيق (٥) وبعد [illegible] لاشبيلية و

---

(١) ارسل الملك دون حول عددا من الرسائل اصدرها من شقوبية [illegible] منها رسالة من هذه المدينة في ٢ نوفمبر سنة ١٤٢٧ تتضمن اشارات هامة الى مجموعة من [illegible] الذين يعملون في ترميم قصر اشبيلية .

2) Contreras. Estudis descriptivo de los monumentos arabes granada, Sevilla y cordoba, Madrid 1885, p. 100.

3) Conteras, op. cit., p. 115.

4) Guerrero Lovillo, op. cit., p. 11

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم ٣ ص ٤٣٧ .

موسى هارون عن ذلك في قصيدته التي رثى بها اشبيلية ، ووصف ما نزل أهلها من الشدة ، ومنها

انا الى الله قد حل المصاب وما
من حيلة في الذى أمضى وما حتما
في كل حين ترى صرعى مجدلة
والاخريات أسارى خطبهم عظما
وقد أحاطت بنا الاعداء فاغرة
أفواهها تبتغي ارواحنا طعما
عمت يد الشرك ما شاد الخلائف من
قصر ومن مصنع ضخم حكى ارما
من قصر المنزل الاعلى يقل و[illegible]
ما حط قط بدا أسى ولا رسما
اين القباب التي كانت محجبة
فيها الملوك تفيض الجود والكرما (١)

ويعتقد الاستاذ [illegible] في بحثه القيم عن قصر المبارك أنه [illegible] في [illegible] من [illegible] الموحدين ، ويعتقد أيضا أنه يبقى منه أثر هام بقاعة مجلس الشريعة ، استنادا الى بعض العناصر المعمارية التي تحتفظ بها قاعة السفراء بقصر اشبيلية الحصين وهي لا تختلف كثيرا من حيث كثافة زخارفها ودقة تنفيذها وتنوعها أو حتى من حيث تخطيط عن مثيلتها في قصر الحمراء بغرناطة [illegible] لا في وجود [illegible] المفتوح [illegible] التي [illegible] في [illegible]

---

(١) راجع المعجب في [illegible] ، ص ٣٨٢ — ٣٨٤ ولاحظ ما ذكره الشاعر في الابيات الواردة هنا من اشارات الى القصور العبادية والموحدية من تحطيم وسبي وما أصابها من تدمير بحيث شوه معالمها وأضاع مفاتنها [illegible] على عمران اشبيلية [illegible] على الوادي الكبير .

بعضه منقوله من عصر الطوائف ، وكلاهما استوحى فكرة العقد ثلاثى المحدب من المحنى التى بقصر الزهراء (مطو الشكل) ويؤكد الأستاذ جريرو لوبيو أن زخرفته كانت مصدر الهام على ملوك الطوائف أسهمها مدى . شكل عقود فى أسماء عصور . ويخرج من منهشه لنموله نسخة حسنة ومقبولة وهى أنه وصلت لنا من عصر المعتمد جزاء رئيسية فى أهم نسبة داخل نطاق مجموعة المعمارية الكبرى التى بمشه عصر بنى حمى ، وان هذه الاجزاء لاتعدو المحسن برائع ذى سد ده المعتمد بن عباد وسماه الثريا ، وصفها وصاحب الفتح فى دون محصف لم يكتب عنه رمز محمد . فقد تجردت من كسوتها بزخرفته قديمة ، وكسيت بزخرفة مغايرة . الا أن جوهر الثريا مايزال واضحا من حيث تخطيطه وتصميم زخرفته التى تنحنى على قاعة السفراء (١) .

واذا تصفحنا المعالم الاخرى التى وصلت الينا من العصر المرابطى نجد [illegible] فى تعديل التوأمين المفتوحين على شكل حدوة الفرس وهو نوع الشائع استخدامه فى العصر الاموى وعصر الطوائف . مستدير فى الجدار الخلفى من واجهة بهو الجص . ومعقود من هدس

---

(١) Jose Guerrero Lovillo, op. cit., p. 104 - 109.

وقد اطلعنى الاستاذ جيريرو ايضا فى مقابلة اخيرة معه على ان قاعة السفراء الحالية ليست فى الواقع سوى قاعة من قاعات قصر الثريا ، أعيد كسوة جدرانه وفق الاسلوب المرساوى زمن السلطان محمد الخامس الذى كان معجبا لتلك التشكيل بدور الاول . ويعتقد أن قبة هذه القاعة الحالية أقيمت مكان قبة مقرنصة آثارها ما زالت موجودة حاليا ، وفى هذه الحالة تصبح قبة قصر الثريا او قبة مقرنصة اقيمت فى مبنى اسلامى فى الاندلس ومغربها . ونحن اوافقه على هذا الرأى لأن القباب المقرنصة لم تظهر فى المغرب والاندلس قبل عصر المرابطين (راجع مقالى

Elsayed A. Salem. Algunos aspectos del florecimiento economico de Almeria islamica durante el periodo de los Taifas y de los Taifas y de los Almoravides, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, Vol. XX, 1979, p. 17, No. 1

معدين مماثل جدا من القصر المرابط أو الموحدي و ن الموحدين أعدو استخدامه بعد أن سوغوه بزخارف جصية من صنع زخارف الموحدين . وبوسط هذا الصحن حوض مستطيل ... يعتمد على عقود الحوض وما زالت بقاياه في القصور ... . وقد تكون هذه الفسقية مركبة التي ... في ... ودعت ... مثلا ... ولا نستطيع ... ك في مجموعة القصور ... أخرى من قصور المعتمد ... في نص ... وأهميته . و ... ولكن كشف هذه يحتاج الى دراسات أثرية وحفريات وهو أمر يصعب ... الآثار التي وصف ... من مجموعة القصور ... عم محاسنه من حيث الأسلوب الفني والمعماري . لا ... مجموعة ... القصور ... في ... عن آثار غير مؤكدة العثور عليه .

٢ ـ آثار قصور الموحدين داخل مجموعة القصور العبادية :

من ... نستخلص ... أقامه الموحدين في مجموعة ... مؤلف اليوم قصر اشبيلية فقد كان يتألف من مركزين رئيسيين . قصر ... الذي أقامه في سنة ١٣٦٤ م على ... سلامة و قصر ... يسمى بالقصر القديم . والذي يهمنا دراسة أثر القصر الموحدي الذي أقامه أبو يوسف يعقوب على أنقاض احد قصور المعتمد بن عباد ، هذا القصر لم يبق منه اليوم سوى قاعة الجص ... الصغير الذي يتحدد شكل مستطيل يقوم في أحد جانبيه القصريين صف من العقود يتألف من عقد كبير مفصص يتوسط من كل جانبيه الأيمن والأيسر ثلاثة أقواس صغيرة ترتكز على أعمدة أعيد استخدامها من قصر المعتمد بن عباد . وتؤلف حافات العقود السفلية خطوط متموجة . ويعلو العقد الأوسط تغطيهما شبكة من أشرطة محببة متشابكة على شكل معينات ،

في شكل تمتد العقود [illegible] وينقطع محرابه [illegible] مخرمة ، ويتدلى هذه [illegible] في الجدار لخمس جوفه من ثلاث عقود على [illegible] [illegible] ، وكذلك [illegible] من نفس [illegible] [illegible] في [illegible] من بهو الاسود ، غير بعيد من بهو الجص ، وتشبه هذه القبة [illegible] المسجد الجامع بتلمسان (١) وهي [illegible] تقوم على أساس [illegible] ١٢ [illegible] وتشغل الفراغ المركزي [illegible] من [illegible] في المرحلة الاولى من مراحل [illegible] ، وتشبه بشكل عام [illegible] [illegible] التي ازدادت [illegible] وتألف زخرفة [illegible] [illegible] ومثيل لمسجد [illegible] في [illegible] في عصر [illegible] لكن قبة المحراب بجامع تلمسان ، مع الفارق في زخرفة التوريق الكثيفة المخرمة في قبة تلمسان (٢) ؛ ولكنني أعتقد أنها موحدية وأن [illegible] ترجع الى بداية عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب الموحدي ،

---

(١) راجع التفاصيل في :

Henri Terrasse, L art Hispano Mauresque Paris 1932 p. 235
Georges Marcais, l'architecture musulmane d occident Paris. 1954 p. 195.

ما نويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ،

ترجمة د . احمد لطفى عبد البديع ود . السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٤٥ .

2) Henri Terrasse, La grande mosquee de Taza Paris, 1943. p. 28
Georges Marcais l'architecture musulmane d Occident p. 268

3) Leopoldo Torres Balbas, Ars Hispaniae, arte almohade, Nazari y mudejar, Vol, Iv, Madrid, 1949. p. 31

لأن هذه المرتفعات التي تشمل [illegible] في [illegible]
مقربة من ديلاس أو يلجاس بيرغش .

٣ – آثار حصن الفرج :

تقع قرية سان خوان دي حصن الفرج San Juan de Aznalfarache في [illegible] العربي من ربض طريانة على اشبيلية ، وكانت بحصنها [illegible] على قمة مرتفع مسطح يشكل [illegible] في عصر الموحدين والأمير [illegible] الرئيسي في منطقة الشرف ، ويستدل من كتب تقسيم اشبيلية Setefila بعد أن استولت عليها قوات القشتاليين ، أنه لم يكن ثمة حصن في [illegible] San Lucar وطلياطة Tejada ولا نستطيع أن [illegible] حصن [illegible] البحر ويعرض [illegible] بعد سقوط اشبيلية [illegible] وجهه في سنة ١٢٨٤ م [illegible] اشبيلية ، [illegible] تحول الحصن [illegible] إلى قرية تحمل اسم [illegible] العسكرية [illegible] وهي سان خوان ثم اسم الحصن وهو حصن الفرج (١) .

ومن المعروف أن حصن الفرج [illegible] من الحصانة بحيث لم تتمكن قوات القشتاليين من احتلاله [illegible] دون بلايو كوريا Don Pelayo Correa [illegible] دون أن تنال منه شيئاً (٢) . [illegible] في سنة ١٢٤٦ بعد مقاومة عنيفة ، ويؤكد دي [illegible] مؤرخ اشبيلية مناعة الحصن بقوله : « ان [illegible] الوادي [illegible]

---

1) Yulio Gonzales, op. cit, I. 1, p. 497

2) Alfonso X, Cronica General, PP 750, 751

[illegible] من [illegible] جبال سيراموريا مشرفة على سهول [illegible] (1) .

[illegible] لا [illegible] السور [illegible] تكن [illegible] هي مجموعة من [illegible] وعدة [illegible] الابراج [illegible] موزعة في [illegible] السور على مسافات متقاربة ، وهي [illegible] حتى [illegible] تدل [illegible] عدة [illegible] ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنها [illegible] على [illegible] مستوى ممشى السور على غرار ابراج السور [illegible] .

وبخلاف ذلك لم [illegible] أى أثر للقصر ولا لقاعاته التي أبدع الشعراء في وصفها . [illegible] . لا [illegible] بعد أن تعرضت لأعمال الاصلاح والترميم عدة مرات .

---

[1] Ortiz Dc Zuniga, Anales eclesiasticos t I p 11

نبذة عن قصور دولتي المرابطين والموحدين :

كنا نجهل ما كانت عليه قصور المرابطين في اسبانيا الاسلامية حتى تم الكشف عن بقايا قصير « منتيوود » في سهل مرسية على بعد أربعة أميال من مرسية شمال شرقي هذه المدينة . ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذي احتذاه الموحدون في قصورهم باشبيلية ومالقة وقرطبة . وتدل خطته على تأثر من بعدهم في هذا بتخطيط قصر ، غرناطة . وأهم ما يمتاز به التنسيق التام في مخرج سوره ومداخله وفي توزيع غرفه . ويتوسط هذا القصر صحن مستطيل يطل على جانبيه القصيرين دهليزان مرتفعان بارزان يتوسطهما بهو ، تحيط به مربعات مغروسة . ويتقاطع ممشيان مؤلفان محوري البهو على شكل صليبي ، ويمتلئ بمستطيلات أربعة منخفضة عن هذا المستوى مغروسة بالزهور . وقد اقتبس هذا النظام نفسه بعد ذلك مغربيين من المرسى في جامع القرويين بفاس ، وفي بعض قصور أمراء بني مرين بمراكش .

ولم يذكر مؤرخو العرب جهود الموحدين في بناء القصور ، ومع ذلك فإن عصر الموحدين يعتبر من أزهى العصور في البناء والتشييد ، فقد أقاموا الدور والقصور في غرناطة وقرطبة ومالقة واشبيلية . وقد نوهت كتب التاريخ بما بناه أبو يوسف يعقوب من منشآت قصر البحيرة خارج باب « جهور » من أبواب اشبيلية وأمده بالمياه من قلعة جابر وقرمونة . وأصلح سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) قصوراً أخرى من عصر بني عباد باشبيلية بقيت منها آثار ، تعد غاية في الروعة والجمال وسط خليط من الاضافات المسيحية ، ولا تزيد هذه البقايا عن جزء من قاعة أخرى وقبوه من المقرنصات والضلوع بالمنزل رقم ٣ في بهو البنود بالقصر وبقايا سور وأبراج كانت تحيط بالقصر القديم .

قصور الحمراء بغرناطة :

لم تكن غرناطة زمن الفتح الاسلامي سنة ٧١٣ ميلادية سوى قرية صغيرة فتحها المسلمون عنوة . وضموا اليهود الى عصمتها ، وبعد ذلك كثر سكانها فسميت بعد ذلك « بغرناطة اليهود » . وبعد الفتح ثم تعرف المسلمون عليها . واستقر جند دمشق في البيرة التي كانت حاضرة كورة البيرة زمن بني أمية . ولكن غرناطة أخذت تنمو شيئا فشيئا بعد القرن العاشر ، وأصبحت مدينة كبيرة ، فلما سقطت الخلافة بقرطبة ، استولى البربر على البيرة ، فخربت ونقل أهلها منها الى غرناطة ، وبزغ شمس غرناطة وأصبحت حاضرة كورة البيرة ، ثم أخذ اسم غرناطة يخطر بذلك محلا على الكورة ، واحتل حتى محل اسم البيرة .

ولكن موقع غرناطة على هضبة تمتد من نهر شنيل وانحدارا الى نهر حدرة له أثر كبير في حماية الحصن والبساتين بها . وكانت تشرف من الناحية الجنوبية المرتفعة على فحص فسيح ، وكانت تطل عليها من الشرق والغرب جبال شلير التي لا تفارقها الثلوج شتاء أو صيفا (Sierra Nevada) ، وكان للمرتفعين اللذين يقعان جانبي نهر حدرة وأسست عليهما ، مدينة السلاطين وحي البيازين ، أهمية استراتيجية عظيمة كان لها أثر كبير في منعة المدينة .

ولما سقطت غرناطة في أيدي البربر جعلها زاوي بن زيري عام ١٠١٣ ميلادية عاصمة ، وقد مدها حبوس الصنهاجي وحصن أسوارها ، وأتمه ابنه باديس بن حبوس فكملت في أيامه . وظلت غرناطة عاصمة لبربر صنهاجة حتى استولت عليها جيوش المرابطين عام ١٠٨٩ ميلادية وقضت على الطوائف أسهم جيوشهم حضرة دولتهم في الأندلس ، ثم فتحها الموحدون عام ١١٤٦ ميلادية . وفي نهاية عهدهم نجح بن هود ملك مرسية سنة ١٢٣١ ميلادية في ضم غرناطة الى

مكة ، وبعد [illegible] سنة ١٢٣٧ م ضمها إليه محمد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة ومستقره ووادي آش وبسطة وجيان وغرناطة ، وجعلها عاصمة مملكته .

وشهدت مملكة [illegible] انحصرت أطرافها وتكمشت رقعتها أمام الزحف المسيحي بالاستيلاء على الأندلس على أثر سقوط أهم الثغور : قرطبة سنة ١٢٣٦ م ومرسية سنة ١٢٣٩ م وإشبيلية سنة ١٢٤٨ م في أيدي النصارى ، و[illegible] وعقد بحكم تألف جبهة قومية قوية أمام الزحف المسيحي ، فقد عقدت مملكة غرناطة في ذاتها [illegible] من [illegible] من [illegible] من [illegible] [illegible] سلاطين بني نصر في بحسب الأحمر [illegible] سياسة مع ملوك قشتالة — عملا قويا في إقامة أمد هذا العرش . ومات محمد الأول عام ١٢٧٢ م ملكا قويا استطاع الثبات أمام الأعداء ، وكان من نتائج الاسلام هذا أدى إلى تركيز أهل الجنوب والأندلس في غرناطة ، فوفد إليها أهل الحرف والصناع ، وأقاموا بها وشغلوا كل شبر من أراضيها [illegible] وأقام محمد الأول قصبة الحمراء ، وبنى فيها برج [illegible] Torre de la Vela وبرج الحكم Torre de Homenage كما أقام فيها بعض الأسوار الدفاعية ، وخلفه ابنه محمد الثاني «١٢٧٢ — ١٣٠٢» وكان سياسيا حكيما استطاع أن يوطد سلطانه في البلاد ، وكان لا يتردد في الاستنجاد [illegible] كلما أحس بمطامع لاسترداد مملكته . وتلاه محمد الثالث ، ويقال إنه كان ضريرا فقد كان نشيطا [illegible] ، وله [illegible] و[illegible] قصر الحمراء ، كما بنى

مسجد جامع [illegible] (١) . وقد هدم في [illegible] السادس عشر
و[illegible] منه ثريا [illegible] محفوظة بمتحف الآثار بمدريد .

على أن [illegible] دولة بني نصر [illegible] عهد أبي الحجاج يوسف الأول . [illegible] العلماء والأدباء [illegible] منهم [illegible] . [illegible] مسوكه وانجمام [illegible] الأسمرية [illegible] . وظل يوسف [illegible] حتى قتل عام ١٣٥٤ م وهو يؤدي صلاة في جامع [illegible] وخلفه ابنه محمد [illegible] لدى [illegible] في [illegible] أبوه [illegible] ودام عهده حتى سنة ١٣٩١ م ثم توفي [illegible] ضعف . وبدأت الأحداث في عهد [illegible] الذي [illegible] سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس [illegible] . ونتيجة [illegible] تأييد لأحدهم على الآخر . وكانت آخر [illegible] في [illegible] هذه [illegible] الصراع بين [illegible] وأبي [illegible] أبي عبد الله بن أبي الحسن الذي [illegible] سلم مدينة غرناطة في ٢ من يناير ١٤٩٢م

ويشهد عصر [illegible] غرناطة هذه الأحداث . ونروى [illegible] أنه [illegible] الأقدم الذي [illegible] الأندلس . ويعتبر [illegible] غرناطة [illegible] الحضارة الإسلامية . [illegible] من مسلمي الأندلس خلاصة فنهم [illegible]

---

(١) [illegible] ابن الخطيب أن السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن [illegible] في سنة ٨١[illegible] هـ أعظم [illegible] انشاء المسجد الأعظم بالحمراء [illegible] في [illegible] على ما هو عليه من الحرف والسعد و [illegible] من [illegible] العمد وأحكم [illegible] وأبدع [illegible] ووقف عليه حمام [illegible] انظر اللمحة البدرية في الدولة النصرية طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ ص ٥٠ .

حدائقهم . ومن أهم مزايا الفن الغرناطي أنه فن دنيوي على نقيض [illegible] ، وقد يمكن [illegible] المساجد إلا نتيجة لشيوع الإحساس الديني [illegible] في أيدي المصريين ، وحتى هذه المساجد كانت مزخرفة بزخارف على [illegible] من [illegible] ونحن من هذه المساجد [illegible] في زخارفها وبتعقدها الأبدي دون [illegible] هذه الزخارف كانت تغطي الجدران [illegible] ويكسوها [illegible] أسطحها ، وهكذا يكشف عن [illegible] تطور في [illegible] وكذا كانت [illegible] على زخارف [illegible] القصور [illegible] في تصوير طبيعي لأشكال [illegible] الجمال الذي يحيط بهذه القصور يتجاوب هو وهذا [illegible] في أحدث تأثير جمالي [illegible] توزيع الخمائل و [illegible] أروع أمثلة هذا [illegible] هي تعتبر واحة خضراء في قلب [illegible] بحرقة الشمس ، ولا تدع غابة الحمراء التي تحيط [illegible] وكثافة الفروع — أي مجال لنفاد أشعة الشمس ، كما أن هذه [illegible] التي [illegible] الأشجار [illegible] الوجوه المخترعة و [illegible] بين الصخور ، و [illegible] التي تعرد على الأشجار ومن الأغصان [illegible] كل ذلك — [illegible] في [illegible] ، ويخيل للمرء أنه يحيا في عالم خيالي لا يفكر فيه إلا في القصور التي كانت تعيش فيها أميرات سحرات .

وقد بلغ الفن الغرناطي الذروة . فقد أعد كل ذلك إعدادا دقيقا يحدث المشاهد عن إدراك الحقيقة التي لا سبيل إلى الغفلة عنها وهي [illegible] دولة الإسلام في الأندلس .

ويعتبر قصر الحمراء وقصر اشبيلية وجنة العريف أكمل مجموعة إسلامية للقصور الأسبانية ، وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي

منسوبة إلى مؤسس أسرة محمد بن نصر المعروف بمحمد الأول (١٢٤٨ – ١٢٧٢ م) ويعتقد بعض الناس أنه أقدم هو وابنه محمد (١٢٧٣ – ١٣٠٢ م) إلى عصر هذا البرج نفسه ، وكل ما بقي منه باب النبيذ (Puerta del vino) الذي ما زال قائماً في مغرب القصبة القديمة أجرى داخل سوح أحدث منه ، وبنى محمد الثالث بدوره (١٣٠٢ – ١٣٠٩ م) في شرق بقايا مسجداً سلطانياً لا أثر له اليوم ، إذ أمر فيليب الثاني بهدمه سنة ١٥٧٦ م .

أعمال توسعة كبرى وتنسب إلى يوسف الأول (١٣٣٤ – ١٣٥٤ م) وابنه محمد الخامس (١٣٥٤ – ١٣٩١ م) بناء القصور السلطانية بالحمراء ، وهي من أهم محتويات صحني الريحان والسباع . وينسب إلى يوسف الأول بناء أحد أسوار الحصن الذي يحيط بمجمع الحصن ، بأبراجه وبوابته . ومنها المعروفة بباب الشريعة الذي تم نظام مدخله على شكل عقد من الإسلامي تحت الأدخال بحصر المسيحية عنه ، وقد تم بناؤه في ١٣٤٨ م وفقاً لما هو منقوش كتابي . وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة يد محفورة ومفتاح ، رمز الأولى إلى العدالة ورمز المفتاح إلى مدخل قصور الحمراء ، كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة إلى المصلى الذي كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات التي تقام أوقات الشدة والقحط والمجاعة .

ومن أقدم قصور الحمراء التي ترجع إلى عهد يوسف الأول قصر البرطل (١) ويعنون به في الأندلس الظلة التي تقوم على بائكة هذا القصر من برج السيدات (Las Damas) مصلى صغير ، وتتألف هذه

---

(١) يعني هذه الكلمة المظلة أو السقيفة وقد وردت في نفح الطيب ج ١ ، ص ٣٦٦ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) عند ذكره استقبال الخليفة الناصر للملك أردون عند باب الأفناء بالزهراء .

هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعاً ، ويطل هذا البرطل على بركة مزودة بنافورة أسفل العقد الأوسط ـ تماماً ، ووراء هذا الحوض وفي ركن منه قاعة مربعة تشبه برج يمكن الارتقاء منها إلى غرفة أعلى عن طريق درج في السور . ويغطي الجدران التي تعلو عقود الأسكفة تتكون من زخرفة الجص . ويحيط بالجدران إزار من الزليج تتحد معه الرسوم الهندسية الملونة . وتقوم عقود أسكفته على أربع أرجل من الآجر .

وإلى يمين البرطل من شرقه وعلى درب السور أو ممشاه مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة . ويتخصص هذا البناء الصغير في [illegible] وبه عدة نوافذ مفتوحة على ثلاث جهات [illegible] والأشرطة محفورة في جدرانه وعقوده من الزخرف . ويبلغ طول هذا المسجد ٤ر١٦ من المتر وعرضه ٣ أمتار ، وفي رأسه محراب يقابل الباب ويتجه نحو الجنوب الشرقي وتعلوه قبوة مقرنصة . ونستطيع أن نرجع بناء هذا المسجد من أسلوب زخرفه إلى عهد يوسف الأول .

ولا يبعد برج الأسيرة كثيراً عن قصر البرطل ، إذ يقوم على مرتفع يعلو الخندق الفاصل بين الحمراء وجنة العريف ، ويضم هذا البرج قصيراً يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية . ويتوسط البرج صحن داخلي صغير يحيط به من جهاته الأربع مصاطب . وزخرفة قاعات هذا البرج لاسيما ترصيعاته بزليجه الملونة والزخرفة الجصية الرائعة التي ما زالت تحتفظ بنقاء ألوان وتذهيب تجعل هذا القصر من أجمل ما شيده يوسف الأول .

وبرج الشرفات أو [illegible] يقع بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة ، وقد سمي كذلك نسبة إلى شرفاته المدببة ومشربيته البارزة على أحد جوانبه . ويتميز هذا البرج عن الأبراج الإسلامية الأخرى . إذ من اليسير ملاحظة

أثر المعمار استحقه في مكانه . ويصعب على الظن أن أسيرا مسجد ا
...حم في مكانه . والعمود التي تعلو هذه الطبقة الأولى منه تقوم على
...عمد حدود امبراطية . وفي أسفل البرج منعطف دونه صغيرة . وعند
سفح ينظر من تسمى حرس ذلك هو الحدور الملك الصغير
(cuesta del rey chico)

وإلى يسار برج ... برج مخدع الملكة (de la Reina) ويضم هذا البرج ... شأنه في ذلك شأن برج الأسيرة — قصرا صغيرا لطيف البرج ... الأول . ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش . ... بعض الأحجار الأحمر ، لعله منه في القرن السادس عشر ، وداخله روائع من فن التصوير الإيطالي . وقد أعد إلى هذه الغرفة مشهور القديم .

ويحيط بهو الريحان ويتألف قصر الحمراء من ثلاث مجموعات اثنتان منها ترجعان إلى عصر يوسف الأول ، والثالثة ترجع إلى عصر محمد الخامس . وقد ضاعت معالم المجموعة الأولى التي كانت تشتمل على مجموعة من الأبنية لم يبق منها سوى أسسها . وبجوارها ... في جهته الشمالية محنية تتقدم برج يعرف اليوم باسم برج مشوكة . وهو مهندس شارلكان . وإلى جانبه كان قصر العدل أو المشور . وفيه كانت تجرى الأحكام .

وتضم المجموعة الثانية . وترجع أيضا إلى عهد يوسف الأول — عصر السلطان ومقر الحكم . ويعتبر هذا القصر أروع ما شيده السلطان يوسف الأول . ويتوسط هذا القصر بهو الريحان ، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء . ومن شرفات هذه القاعة ونوافذها يمكن أن يتمتع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة . ويمتد العين في نهر حدره الذي تندفع مياهه أدنى التل إلى حي البيازين في المرتفع الآخر المقابل للحمراء .

ويحيط هذا [illegible] بمجاز [illegible] بسقف . ويناسب من زخرفه جصية وزخرفة هندسية ونباتية وكتابية ، [illegible] خشبي تكسوه [illegible] ، ويمثل [illegible] في مستطيل [illegible] [illegible] حركة Barca [illegible] في هرمية [illegible] تشبه [illegible] [illegible] في [illegible] حركة [illegible] ، ويطل على بهو الريحان [illegible] من [illegible] عقود [illegible] ، وهو أروع مثل [illegible] الأندلسي . [illegible] [illegible] مستطيلة [illegible] [illegible] ، ويعرف [illegible] بهو البركة ، ويمتد هذا البهو [illegible] جنوباً و [illegible] في المحور نفسه . ويتألف هذا [illegible] من [illegible] .

وفي شمالي مجلس [illegible] ومهو الريحان الحمامات السلطانية وهي من أقدم أبنية العصر ، وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من [illegible] ، ويرجع إلى عهد يوسف الأول الذي سجل اسمه في نقش [illegible] ، ويسمى [illegible] في شمال [illegible] يطلق عليها اسم قاعة الأسرة . وقد أجريت عليها إصلاحات عدة في القرن السادس عشر [illegible] كثير من معالمها القديمة ، ويسقف [illegible] الأساسية في الحمامات [illegible] تخترقها [illegible] أو [illegible] وهي أشكال نجمية لإنفاذ الضوء ، وتكسو [illegible] الأدنى من الجدران مربعات [illegible] من الزليج ، وتحمل العقود المتجاوزة المنكسرة أعمدة صغيرة رشيقة .

أعمال محمد الخامس :

ذكرنا فيما سبق أن محمداً الخامس أتم وأصلح أبنية أبيه ، مثل ذلك قصر الريحان [illegible] على وجه خاص ، إذ أن زخارفه تختلف [illegible] عن زخارف قاعة السفراء . كما أنه [illegible] أنه [illegible] [illegible] على [illegible] ، ويتصل به أسطوان على شكل [illegible] [illegible]

إلى صحن الريحان . وتشبه وجهة هذا المدخل واجهة القصر بإشبيلية
الذي شيده في عصر معاصره بدرو القاسي ملك قشتالة .

وقد توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده مجموعة ثالثة في قصر الحمراء . وهي مجموعة قصر السباع . والمحور الأساسي في هذا القصر الجديد يتعامد على محور بهو الريحان . ويضمه الجديد في مجموعة معمارية مرتبطة في شكل مربع تقريبا ، إذ أنشأ بدلاً من القاعتين اللتين تقعان في الطرفين القصيرين للمستطيل في بهو قصر قمارش الحرث وبهو الريحان ، أحاط بالصحن المركزي المعروف ببهو السباع في جهاته الأربع ـ أربع بوائك ، ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء [illegible] الحوض الأعلى [illegible] . ثم الأدنى من حجر يستدير تحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواهها . ويدور بالحوض طراز كتابي في مدح محمد الخامس . وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرخامية الرشيقة عقود نصف أسطوانية مصنوعة بغصون جدران مكسوة بالمشكات الزخرفية ، ونقرأ في جدران هذا القصر نقوشاً عربية منها : « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله » كما تزخر الجدران بأشعار ابن زمرك في مدح هذا السلطان .

وصحن السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨٫٥ متراً وعرضه ١٥٫٧٠ متراً ، ويطل هذا الصحن بمثل نظام صحن قصير منقوش معرسه . إذ على جانبيه القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة . ويتقاطع محورا الصحن وقد اتخذا شكل قنوات للمياه بحيث يؤلفان شكلا صليبيا . ويذكر الأستاذ لامبير أن الشكل العام لصحن السباع بما يحيط به من بوائك في جهاته الأربع يبدو متأثراً بنظام

أبهاء الأديرة المسيحية (¹) وإن كنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنه متأثر بنظام أبهاء المساجد أو الأربطة .

خلف الجوسق الغربي قاعة سمحة تعرف معالمها الإسلامية ، على حين أن خلف الجوسق الشرقي قاعة الملوك أو قاعة العدل (²) . ويرجع معقود أسقفها التي تخشب في مواطنها المقرنصات الدقيقة . أما القاعتان الجانبيتان شمالاً وجنوباً فهما من أروع ما خلد من العمارة الإسلامية في الأندلس ، فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بني سراج يتوسطها نافورة من الرخام بها آثار بقع حمراء يقال إنها من دماء بني سراج بعد أن قضى عليهم سلطان بني نصر . ويعلو القاعة قبة رائعة تتكون من مقرنصات دقيقة محكمة الشكل . أما القاعة الشمالية فتعرف بقاعة الأختين نسبة إلى بلاطتين كبيرتين من رخام متماستين في الشكل كانتا تكسوان الأرضية ، وتعلو هذه القاعة قبة محكمة التشكيل من المقرنصات الدقيقة التي تشبه خلايا النحل . وتؤدي هذه القاعة إلى شرفة تطل على حي البيازين . وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية ونسخية وأدعية للسلطان . والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء .

وقصر السباع يضم أكثر من تأثير للفن المسيحي ، ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة بالعلاقات الودية التي أخذت تزدهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بين غرناطة من جهة واشبيلية وطليطلة

Lambert, L alhambra de Grenade revue de l'art LXIII p 44-164

(٢) تزدان بعض أسقف هذه القاعة بصور لملوك غرناطة ومناظر للقنص والحرب وغيرها . ولكنها صور يبدو فيها التأثير الحديث للمدرسة الإيطالية مما يجعلنا نظن أن فنانين مسيحيين ساهموا في زخرفة هذه القاعة .

من جهة أخرى ، بين محمد الخامس وبدرو القسي ، وقد نتج من ذلك حدوث تبادل فني بين عاصمتيهما ، ومن هنا نشأت صالات عربية [illegible] من الفن الإسلامي بقرطبة و[illegible] باشبيلية وطليطلة أو [illegible] وبين أهم [illegible] يطغى المسيحي على معظم ما حدث من غرناطة وشمالي افريقية في القرن الرابع عشر . ومن مظاهر هذا التأثير المسيحي تعدد زخرفه واختلاف في حشودها ، كما أنه نتج عنه ظهور عنصر جديد أكثر [illegible] مدمجة . وتتضح هذه [illegible] عدة في أكاليل على الحجر لدى [illegible] الزخرف المدمجة [illegible] . وتتضح هذه [illegible] على مثال الرنوك التي تزين الأبنية المسيحية .

قصر جنة العريف

ونختم حديثنا عن قصور الحمراء بذكر قصر جنة العريف . فعند أسوار الحمراء ، ترتفع عدة تلال تشرف على وادي نهر حدرة [illegible] هذه التلال من مياه نهر [illegible] عن طريق القنوات والجداول والأحواض المائية التي تخترق الوديان . ووجدت أماكن [illegible] حدائق [illegible] دور اللهو التي كان يشيدها أمراء المسلمين وعند [illegible] كل هذه [illegible] حتى كفت [illegible] عن الوصول الى تلك الدور . ولا في [illegible] أجل [illegible] ، ولكنه أكثر [illegible] هو جنة العريف .

وقد تبارى الكتاب من القرن السادس عشر في وصف ومدح هذه الجنان التي [illegible] في وقت هذا [illegible] كانت تزودنا مع ذلك بصورة شيقة [illegible] لعناصر البساتين وعطورها [illegible] وأشجارها وعرائشها التي تظلل قصورها .

ولنبدأ الآن في مجموعة أبنية جنة العريف يتألف من صحن

بعيد لاستطالة مقوم فى طرفيه [illegible] ، وفى وسطه قناة تنحدر منها المياه ، وتنسكب فى جهة [illegible] من عقود محكمة ، ويقوم [illegible] مثال نظام [illegible] فى مجموعة [illegible] [illegible] القصر عام ١٣٦٢ م .

وقد أسهم [illegible] فى [illegible] من العصور [illegible] فى [illegible] ، وكل شيء فى [illegible] فى [illegible] ، ولا [illegible] فى [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] محيط به .

ويبدو لنا مما سبق عرضه أن [illegible] أن منهم عرفاء بنى نصر [illegible] من العمارة وعنوا على زخرفته ، وأنهم كانوا مزخرفين ممتازين ولم يكونوا مهندسين معماريين ، من النظام الرائع بقصر الريحان بقصر السباع [illegible] محمد الخامس [illegible] فى العمارة والجمع بين موضوع الاختراع والشكل . كما وفقوا فى الجمع بين العمارة والطبيعة . وكلها مقومات هامة لابد أن تتوفر فى فن العمارة والبناء .

وإذا كانوا قد وجهوا النقد إلى ضعف البناء فيكفى ردا على هذا النقد أن قصر الحمراء ما زال قائما فى صورته الأصلية دون أن تتصدع جدرانه أو تنهار دعائمه ، ويكفى دلالة على المظهر المعمارى بقصور الحمراء « ظاهرة الحمراء » التى حدثت فى ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٥٢ حين اجتمع وفد مؤلف من ٢٤ مهندسا معماريا فى قصر الحمراء للتفكير فى وضع أسس لعمارة قومية جديدة ، وكل ما أمكن أن نستخلصه من تقريرهم أن « قصر الحمراء مستودع رائع للعمارة الإسبانية » .

الفصل الثالث

التحصينات

النظم الدفاعية فى المدن الأندلسية

النظم الدفاعية في المدن الأندلسية :

أطلق مؤرخو العرب في تقسيمهم من مجتمعات الأندلسية معرفة عدد من المسميات ، حتى بحسب سعة وأهمية كل مجتمع من الوجهة العمرانية ، فكانوا يطلقون لفظ مدينة للدلالة على كل مدينة ذات حظ كبير من الأهمية والسكان ، ويطلقون عليها اسم حاضرة إذا كانوا يعنون بها عاصمة احدى الكور أو الأقاليم .

والمدن الإسلامية نوعان : الأول يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح الإسلامي . والثاني المدن التي أنشئت في عهد الإسلام ، وقد شهد المسلمون عند فتحهم الأندلس بلاد غنية موفورة [illegible] ، [illegible] محمد وعمرانه رفيع ، والناس [illegible] عندئذ [illegible] في الاستقرار بها ، إذ وجدوا في هذه المدن مأمناً من قبل . [illegible] مصرا من طرق هجمتها به [illegible] لاهتمام ، إلا أن المراكز العمرانية بالأندلس ، المتحركة في تطورها ، كانت تكتسب رخاءها من التجارة . وكان أغلبها يعتمد على ثروة ما تحيط به من قرى ومزارع الأمر الذي يفسر كثافة السكان بها .

ولما وجد المسلمون سلطانهم يحيط شمل الجزء الأعظم من شبه جزيرة أيبيرية وأحسوا بالاستقرار بعد الفتح . عمدوا إلى إنشاء مراكز عمرانية جديدة تكفل لمصالحهم الاقتصادية ورغبة في تدعيم سلطانهم الدفاعي أمام هذه المحاولات المستمرة من جانب الأسبان للتحرر ، هذه المحاولات التي ما لبث الأسبان أن بداوها في كوفادونجا في وقت لم يفرغ فيه المسلمون بعد من إخضاع شبه الجزيرة كلها لسلطانهم .

وتتميز أكثر المدن الأندلسية التي أسسها المسلمون ، بصفات حربية بحتة مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق .

وأسماء هذه المدن معبر بجلاء تام عن هذه الصفات مثل (قلعة جابر Alcala de Guadaira و (شنتمرية) Alcocer و (قلعة أيوب Calatayud (قلعة رباح) Calatrava و (القصر) Alcazar و حصن الفرج Aznalfarache و (حصن القصر) Aznalcazar وهلم جرا ... وكانت تحيط بالمدينة الأندلسية الإسلامية أسوار منيعة تحميها من الغارات والغزوات .

ولم يكتف المسلمون في أول عهدهم بالأسوار الرومانية حتى إذا ما اتسع نطاق المدينة وتزايد سكانها وضاقت أسوارها نتيجة طبيعية للتوسع العمراني وأصبحت هذه الأسوار عقبة كأداء في سبيل العمران ، وتآلفت خارج هذه الأسوار أرباض اتصلت ببعضها وتنقلت بحوانيت في الأحياء . فعمل المسلمون على تجديد الأسوار في سبيل السداد بحمايتهم وغيرهم من الناس . وبحثت مواضع الأسوار المتهدمة إلى طرق مسيحية أقيمت أسوار إسلامية على نطاق أكبر اتساعا بحيث تحيط بالأرض ، ومثل ذلك ما فعله الأمير السمح بن مالك الخولاني في بنائه بجسر قرطبة من أحجار سور المدينة سنة ١٠١ هـ (٧١٩م)

وفي ذلك يقول صاحب كتاب « فتح الأندلس » أصاب المسلمون إذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رومية تقدر معقودة فوق نهرها الجاري على عدة حنايا وثق الأركان من تأسيس الأمم السالفة الداثرة لم يبق منها إلا رسوم ، ولا يصل الناس إلى قرطبة إلا في السفن فيلقون في ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك بنيانها . فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة » .

وقد عمد الأمير عبد الرحمن بن معاوية بعد ذلك إلى بناء سور آخر حول قرطبة عمده بالتلبس « وفي سنة خمسين ومائة (٧٦٦م) أمر

لأعداء من [illegible] سور عرضه حتى يمكن حصر مهاجميه بداخل [illegible] بسبب [illegible] من حصره فيكون [illegible] حسب ما أمر به ؟ .

وقد حدث بعد ذلك في سنة [illegible] عبد الرحمن [illegible] عبد الرحمن (الأوسط) سور [illegible] سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) من حجارة [illegible] بعد هجوم [illegible] فحطمت بعض هذه الحجارة في سنة [illegible] محمد [illegible] المعروفة باسم [illegible] سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) . وحين هدمت هذه الأسوار [illegible] بعد أن [illegible] المدينة في عهد الموحدين استخدمت أحجار السور في بناء أساس الصومعة وقد عثر بعض على هذه الحجارة عليها كتابة لاتينية في إحدى الجوانب [illegible] على أنها [illegible] إلى [illegible] الروماني القديم .

وكان يدعم الأسوار أبراج تتوزع في السور على مراحل منتظمة كما كان يحيط بها أسوار أخرى أمامية وتخترقها أبواب ميسر مدخل المدينة ومخرجها . كما كانت بها قلعة أو قصبة في أشد أجزائها ارتفاعا تدعم عن المدينة في حالة الهجوم من أعلى . وعندما تستعد هذه القلعة أي جزء من أسوار المدينة لتسهل على حماتها الفرار في الوقت المناسب .

وكان المسلمون منذ الفتح في حرب دائمة مع نصارى الشمال الذين ما فتئوا يجاهدون منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد من أجل استردادها . واحتدمت هذه الحرب منذ عهد ملوك الطوائف بصفة دائمة حتى أصبحت رقعة [illegible] الإسبانية بعد أن سقطت الخلافة الأموية سنة ١٠١٠ م . وقامت على أنقاضها دويلات صغيرة [illegible] أن المسلمين [illegible] ألفونسو السادس ملك قشتالة [illegible] ولا [illegible] من هذه الدويلات سوى مملكة اشبيلية . وقد [illegible] ملكها المعتمد ابن عباد الذي تولى الحكم في ١٠١٢ الى ١٠٩١ م [illegible]

[illegible] هذه الدولة فى المغرب . اذ كان على [illegible] يوسف [illegible] نجدة المعتمد من [illegible] الأندلس ، وهزموه هزيمة منكرة فى موقعة الزلاقة Sagrajas عام ١٠٨٦ م بالقرب من بطليوس Badajoz ثم أنزل المنصور الموحدى بالنصارى هزيمة كبرى فى واقعة الأرك ١١٩٦ م [illegible] آخر انتصار للاسلام فى الأندلس .

[illegible] فى الأندلس [illegible] الحرب فى الأندلس [illegible] النصارى بملوك الفرنجة واتسم [illegible] الحروب الصليبية فى المشرق . وان كانت [illegible] هذا الصراع أن اهتم [illegible] فى الدفاع عن كل منهم [illegible] فى [illegible] خططا جديدة فى التحصينات من ذلك « الأبراج البرانية » والمداخل ذات المرافق لتضليل الأعداء ومفاجأتهم .

ونود هنا تفسير كل العناصر المعمارية التى [illegible] منها العمارة الحربية الاسلامية فى الأندلس .

الأسوار الأساسية « الستارة » :

كانت تحيط بالمدينة من جميع جهاتها لترد عنها هجمات الأعداء . وقد اتخذ المسلمون مبادىء [illegible] الرومانيين فى أسوارهم ، وهكذا [illegible] أسوار مدينة [illegible] وأسوار قصبة مـاردة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، كما [illegible] أسوار مدينة الزهراء وأسوار حصن [illegible] فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر .

وكانت مدينة قرطبة ، على حد قول الشريف الادريسى متألفة من

خمس مدن مستديرة أحاطت كل واحدة منها ستور متصل وكسيت هذه الأسوار بالأحجار على نحو الاسلوب الذى كانت تتبعه العمارة الرومانية من حيث طريقة توزيع الأحجار واعتدال خطوطها .

لكن حدث فى عهد الخلافة الأموية بقرطبة عندما [illegible] سلطان المنصور فى [illegible] لحروبه . [illegible] الخلافة الأموية واستقل كل من [illegible] . وبدأ عهد ملوك الطوائف . شرع هؤلاء فى تحصين بلادهم . ويذكر المؤرخون أن [illegible] فى زمن [illegible] . كما بنى كذلك [illegible] قرطبة وترميمه ومطموس . ويبدو أن السبب فى ذلك هو الصلة فى حماية المدن من القبائل التى كان يشنها الطامعون من هؤلاء الملوك على المدن الأخرى المجاورة ، والرغبة السريعة فى سد [illegible] . كما يبدو ذلك فى سور [illegible] الذى أمر [illegible] عبد الرحمن الناصر بهدمه سنة ٩١٣ م على مدى [illegible] من [illegible] المعروف [illegible] للتسليم ، ورغبة فى منع المحاولات التى كان يبذلها [illegible] المدينة للاستقلال عن السلطة المركزية فى قرطبة .

على أن تحسينات كثيرة أدخلت فى النظام المعمارى لهذه الأسوار الاندلسية فى عهد المرابطين (١٠٩٠ م – ١١٤٥) [illegible] الدروب [illegible] وتقنتد . وقد وجد [illegible] أعمالهم [illegible] يتقدم الذى أحرزه النصارى فى عهد ألفونسو السادس عند توسعه فى حركة الاسترداد [illegible] . وقد ابتكر المرابطون [illegible] جديداً فى تخطيط الأسوار ، ذلك أنهم عمدوا الى الاكثار من الزوايا الداخلة والخارجة بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة ، وميزة هذا النظام أن يترك العدو أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ثم [illegible] عليهم من أعلى الأسوار [illegible] الدروب [illegible] . ويشبه هذا النظام [illegible] ثم ترك ، [illegible] . وقد ظل هذا النوع من الأسوار [illegible] فى [illegible] حتى آخر العهد بدولة الاسلام فى الأندلس .

وكانت تسوّر في الأندلس في أعلاه من درب يسير عليه المحاربون
[illegible] دون [illegible] بمعشى السور ، وشرفات يتقدمون منها
سهامهم . ودروب محصنين خلفها ، والدروب كانت عامة تنتهي بشكل
مدرجين . ويعطي خلفه دورة تحت سند لحرب على نطر
في نصب دون أن يصيبه سهم الأعداء . وقد بقي من أسوار المدن
الأندلس [illegible] سليما في أكثر أجزائه ، كما هو الحال في
أسوار قرمونة و[illegible] وشنتمرية وطليطلة وشريش ومالقة
ومخشوش .

الأبـــراج

① البرج المربع :

وكان يقوم بين مسافة وأخرى من الأسوار أبراج أكثر ارتفاعاً
منها يمكن عبور الى خارج المدينة . وكانت أغلب هذه الأبراج تتخذ
شكلاً مربعاً كما هو الحال في أبراج حصن مسفوط بمرسية وأبراج
سور سبتة وغرناطة ومعظم أبراج قرطبة والمرية وقصبة مالقة وحل
عرو وجبل طارق . ويتألف البرج من نصفين : نصف أدنى مصمت
ونصف أعلى ويشغله غرفة . تعلوها في بعض الأحيان غرفة أخرى
أعلى [illegible] وتنفتح فيه مقاعد السهام وتغطي الغرفة في أغلب الأحيان
قبوات نصف كروية ، وكثيراً ما يمر الدرب في داخل البرج فيصبح ممر
مغطى بقبوات متعارضة ملتصقة ، ويرتقي الى قبوب درجة في داخل
البرج يفضي الى أعلى مصطبة تشرف على الأسوار جميعها ، وبدون
تأتي البرج شرفات ودراوي هرمية الشكل . وأبراج غرناطة كبرج
الملكة وبرج عمرش وبرج الأسيرة قصور كسيت جدرانها بالزليج
والزخرفة الجصية الدقيقة وغطيت سقوفها بأروع ما وصل اليه فن
المقرنصات من تعقيد .

البرج المضلع : (ج)

ليس البرج المضلع أو كثير الضلوع ابتكاراً إسلامياً ، إذ أنه يرجع إلى تقاليد فنية قديمة . وقد عرفته العمارة الرومانية . ومن أمثلة ذلك البرجين اللذان يحفان بباب قرطبة بمدينة قرمونة مثمنا الشكل ، وأبراج مدينة فريجوس مسدسة الشكل ، والأبراج التي تحيط بقصر دقلديانوس بسبالطه والتي ترجع إلى بداية القرن الرابع مثمنة الشكل ، وهناك أبراج مؤلفة من اثني عشر ضلعا كما هو الحال في برجي بلاثيو بتورين وهو من عمل الامبراطور أوجست ، وقد عرفت العمارة البيزنطية الأبراج المضلعة وبخاصة النوع السداسي مثل ذلك حصن سيريك مآسي بمصر وحصن من البرج في شمال أفريقيا .

وقد تأثر المرابطون والموحدون بصفة خاصة — بالعمارة البيزنطية فشيدوا أبراجا مسدسة الشكل كالبرج المسدس المعزل في حصن العقاب (لاس نافاس دي تولوسا) بالقرب من جيان ، والبرج المطل على قنطرة القصبي بمربيطة . وقد استعمل الموحدون البرج المثمن على نحو منظم في بعض أبراجهم (البرانية) وهو تعبير أندلسي يعبر عن الأبراج الخارجة عن نطاق السور . وما لبث أن شاع هذا النوع في المدن التي تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى مثل مدينة القصور وبطليوس . كما استخدموا أبراجا مؤلفة من اثني عشر ضلعا كما هو الحال في برج إسبانتا بروس ببطليوس وبرج الذهب بإشبيلية . وفي مدينة لبلة برج كثير الأضلاع يعرف ببرج الذهب ، وقد شاعت الأبراج المثمنة في الأندلس كما نشاهده اليوم في مدينة شريش وشنتمرية .

والبرج المثمن يفضل بكثير عن البرج المربع من وجهة النظر الدفاعية ، إذ أنه بكثرة ضلوعه يمكن المدافعين من التحرك في كافة

لاستدارته وسهولة الانتقال في أجزائه . ومن هذه الأبراج ما نراه اليوم في الأبراج التي تحيط بالبيازين في غرناطة .

(٣) البرج البراني : (٤) البرج المستدير

لما اشتد الخطر المسيحي على المدن الأندلسية ، ابتدع الموحدون نوعا جديدا من الأبراج تسمى « الأبراج البرانية » Torres Albarranas يقصد بها تدعيم استحكاماته ، إذ أنه يقع خارج الستارة ويربطه بها قنطرة أخرى تسمى قورجه (١) Coracha لتطل الطريق أمام الأعداء في أضعف أجزاء السور . وهكذا أقيمت الأبراج البرانية بمدينة بطليوس وطلبيرة وقرطبة وقلعة جابر . وهذا اللفظ مشتق من كلمة عربية تدل على الأصل الإسلامي لهذا النوع من الأبراج ولإثبات ذلك يكفي أن يلاحظ أن أقدم هذه الأبراج هي أبراج قصبة بطليوس وحصن القصور اللذين يرجعان الى عصر الموحدين . وليست لدينا أمثلة أخرى منها في العمارة البيزنطية أو العمارة الإسلامية بالمشرق . وترجع الأبراج البرانية الى عصر الموحدين وتتخذ اما الشكل المربع أو الشكل المثمن كما هو الحال في أبراج قصبة الموحدين ببطليوس وأسوار مدينة استجة وقلعة جابر . ولكن البرج البراني المثمن يمتاز على البرج البراني المربع بأنه أكثر منه مناعة وأكثر حصانة إذ أن جوانبه ضعف جوانب البرج المربع وإن كان البرج المستدير أفضل من هذين النوعين . ولم يستعمل الموحدون البرج المستدير لأن بناء الأبراج المربعة والمثمنة بالبلاط والأحجار أسهل من بناء الأبراج المستديرة . وقد شاع بناء هذه الأبراج الأخيرة في شمال افريقيا في قصبة امرجو ورباط وهما من عصر المرابطين . ومن أمثلة الأبراج البرانية باشبيلية

---

(١) قورجة [illegible]

برج الذهب وبرج الشرفة وبطليوس برج اسبنت بروس ، ويرتبط برج الذهب بمنارة أسستها عن طريق قورجه لم يبق منها سوى أى اثر . وأصبح البرج منعزلا عن حافة نهر الوادي الكبير ./

السور الأمامي « الحرام البراني أو البربجانة » :

أدت الحروب المستمرة التي قام بها المرابطون [illegible] الحربية للدفاع عن مدنهم . وكانت أسوار هذه المدن تتألف من ستارة أساسية تدور حول الحصن أو المدينة ثم سور أمامي أخفض أقل من السور الأساسي ارتفاعا يبعد عنه بمسافة تعادل ربع ارتفاع السور الأساسي . ويحيط هذا السور الأمامي بالأبراج وتدور حوله حفير أو خندق . وكان المسلمون في إسبانيا يشاهدون هذا النظام المعماري بمزيد من العجب ولم يلبثوا أن أقبلوا على تقليده . ويذكر مؤرخو العرب بداية استعمال هذه الأسوار الأمامية منذ القرن العاشر الميلادي . غير أن الدلائل المادية تشير إلى أن استعمال المسلمين لهذا النوع من الأسوار بدأ في عهد المرابطين بشمال أفريقيا كما هو الأمر في قلعة أمرجو ، ويعتقد « تراس » أن السور الأمامي من أصل مسيحي .

وقد أحس الموحدون بأهمية هذا النظام في تحصيناتهم ، إذ أن السور الأمامي يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة ، وهكذا اهتم أبو يعقوب يوسف بتحصين قلعة جابر التي كانت تعتبر المركز الدفاعي الأمامي لمدينة اشبيلية وحصنها . كما أنه شيد الأسوار الأمامية لقصبة بطليوس المدمة ويغلب على الظن أن الموحدين أقاموا الاسوار الأمامية لقصبة بطليوس المدمة ويغلب على الظن أن الموحدين أقاموا الأسوار الأمامية في جيان وشريش والجزيرة الخضراء وبسطة ولوشة ومالقة . أما سور اشبيلية الأمامي فقد شيده الخليفة أبو العلا

ادريس المأمون بن أبي يعقوب يوسف سنة ٦١٨ هـ «١٢٢١ م » وحفر حوله خندقا . وقد تبقت من هذا السور الاشبيلي أجزاء هامة تبدأ من باب المقارنة حتى باب قرطبة .

الأبـواب ذات المرافـق :

كان يتخلل الأسوار أبواب تصل داخل المدينة بخارجها ، وكان النظام المرابطي لهذه الأبواب هو عقدان متقابلان أحدهما ينفتح الى الداخل والآخر ينفتح الى الخارج . وقد ابتدع المرابطون نوعا آخر من هذه الأبواب هو الأبواب ذات المرافق ويعني بذلك أن الممر الموصل بين مدخلي الباب ينحني بزاوية قائمة في شكل مرفق وتعتبر هذه الأبواب موضع عناية أهم المهاجمين في تلك الانحناءات وقد زاد الموحدون من هذا النظام اذ أنشأوا أبواب مرافقها مزدوجة ، ولم يسقفوا هذه الممرات حتى يتيح الفرصة للجند بالاشراف من عل على المهاجمين ورميهم بالنبل والنار الاغريقية يصبونها عليهم صبا . ومن هذه الأبواب ذات المرافق نذكر باب de los Pesos بمرباطة وباب Monaita بهذه المدينة ويرجعان الى عصر المرابطين ، وباب قرطبة بشنشلة ، وباب مدينة لبله ويرجع أيضا الى عهد المرابطين .

ومن عهد الموحدين يرجع باب Capitol وباب الزائدة Apendice بطليوس . أما الأبواب ذات المرافق الثلاثة فتوجد بمراكش مثل أبواب قصبة الأوداية برباط . وقد اتبع ملوك بني نصر النظام الموحدي الأندلسي للأبواب ذات المرفق الواحد كما هو الشأن في باب العدل أو باب الشريعة بحمراء غرناطة .

هذه نظرة سريعة موجزة عن بعض وسائل الدفاع المدني الاسلامي في الأندلس في العصور الوسطى ويمكن أن نستنتج منها مدى ما وصلت

اليه العمارة الحربية الأندلسية من تقدم يفوق نظيراتهـا فى المشرق الاسـلامى .

وتحتفظ الأندلس فى وقتنا هذا بتراث هائل من الحصون والقلاع الاسـلامية التى تنطق بالدور الكبير الذى قامت به ، كمـا تعبر بقايا الأسوار والأبراج عن الجهاد المرير الذى قام به المسلمون للاحتفاظ بوطنهم والدفاع عن شرفهم وكرامتهم . وقد ظلت هـذه العناصر المعمارية الاسـلامية مثلا يحتذى للعمارة المدجنة والمسيحية حتى عصر النهضة حين فقدت التحصينات من قيمتها الدفاعية القديمـة على أثر ما ابتكرته الحروب من آلات حربية جديدة كالمدافع والمتفجرات .

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥ — ٧

الفصل الاول ٨ — ٤٥

المساجد

اولا : المسجد الجامع بقرطبة ٨ — ٣٩

ثانيا : المساجد الاندلسية فى
عصر الدولة الاموية وعصر ملوك الطوائف ٢٩ — ٣٧

ثالثا : المسجد الجامع بقصبة اشبيلية ٣٧ — ٤٥

الفصل الثانى ٤٧ — ١٣٨

القصور

١ — القصور الاندلسية فى عصر الدولة
الاموية وعصر ملوك الطوائف ٤٩ — ٦٩

٢ — قصور اشبيلة فى العصر الاسلامى ٧٠ — ١٣٩

٣ — قصور الحمراء بغرناطة ١٤٠ — ١٥١

الفصل الثالث التحصينات

النظم الدفاعية في المدن الأندلسي

الفصل الأول

المساجد

أولا : المسجد الجامع بقرطبة .

ثانيا : المساجد الأندلسية في عصر الدولة الأموية وعصر ملوك الطوائف

ثالثا : المسجد الجامع بقصبة اشبيلية .

مسجد جامع قرطبة

بمسجد عبد الرحمن الأول ، فأزاح عللها وبالغ فى اتقانها وأعادها الى أول نشأتها . وتطورت هذه اللفائف فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم بلغت أقصى مراحل تطورها زمن الحكم المستنصر ، فازدوجت وأصبحت زخرفية بحتة .

مات الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد بقى عليه فى هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها ابنه الأمير محمد سنة ٢٤١ هـ فاستوفيت الكمال فى أيامه اذ استوعب طروز المسجد وأوثق أبوابه وأقام المقصورة فيه عام ٢٥٠ هـ وكان أول من اتخذها هنالك من خلفاء بنى أمية . ويعقد باب سان استيبان نقش كوفى يشهد بهذا الاصلاح نصه « بسملة ... أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك ... فى سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه . مسرور و [نصر فتياه] » .

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال فى الجامع ووضع فيه الأموال الموقفة لغياب المسلمين ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف . ويغلب على الظن أن بيت المال هذا كان يشبه بيت المال بجامع دمشق الذى ما يزال قائماً حتى اليوم وكذلك « قبة الخزانة » بجامع حماة وحمص ومنبج المقامة فى وسط الصحن . ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطا معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط الى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح الى المقصورة باباً كان يخرج منه الى الصلاة فلا يراه أحد فى مجيئه ولا انصرافه ولايتكلف له مؤونة قيام ولا ارصاد خروج . فكان أول من اتخذه من خلفاء بنى أمية بالأندلس ، فاتبع سبيله فيه كل من جاء بعده منهم .